لماذا ؟!

(الجواب عن بعض الأسئلة الوجودية والتشكيكية)

بقلم

أ.د / الشريف حاتم العوني

المقدمة

الحمد لله الكبير المتعال ، والصلاة والسلام على رسول الله وأزواجه والآل .

أما بعد : فهذه أجوبة على بعض الأسئلة التي وُجهت إليّ ، مما يتداوله بعض شبابنا ، ويتكتّم بها بعضهم ، أحببت ذكرها ، وبيان الجواب عليها في هذا الكتاب ، والذي عنونته بسؤال العلّة (لماذا) ، لكي يكون أدل على مضمونه ، ولكي يعلم أبناؤنا أن الإسلام لا يمتنع عن جواب التعليل ، وأنه لا يَحْرُمُ فيه سؤالٌ مهما كان ، ما دام سؤال من يريد التعلم ودفع الإشكال ، وليس سؤال المتعنّت المكابر المغالط .

وهذا هو مسرد هذه الأسئلة ، والتي من حين لآخر سوف أزيد عليها ما يوجه إلي منها بإذن الله تعالى :

١- لماذا أحتاج الإيمان أصلا ؟

٢- ما هو الإيمان ؟

٣- لماذا أتعرّض لامتحانٍ لم أختر دخوله ؟!

٤- لماذا خلقني أصلا ! لماذا أعطاني الحرية ؟!

٥- لماذا يخلق الله خلقا ، ثم يعذبهم في الآخرة ؟

٦- لماذا أحبه ؟! وهو يُلزمني بطاعته ؟! ويريد مني الخضوع له ؟!

٧- لماذا الإيمان بالرسل أصلا ؟(وهو بيان ضرورة الإيمان بالرسل)

٨- لماذا كان الأنبياء من الشرق الأوسط فقط ؟!

٩- لماذا يُذكر سواد الوجه للدلالة على الذم ؟(روايات السنة والعنصرية ضد السُّود)

١٠- لماذا هذا الموقف الشديد من الكلاب في الإسلام ؟

لماذا أحتاج الإيمان أصلا ؟

وللجواب عن ذلك نقف عدة محطات :

المحطة الأولى :

تَـخيَّلُوا حالَ اللقيط (مجهول الأبوين) ! كيف ستكون معرفة أبويه أهم سؤال يُلِحُّ عليه طوال عمره ، فإنه مهما كبر في السن ، مهما نجح في حياته العملية ، مهما نجح في تكوين أسرة ، فسيبقى – رغم ذلك كله – السؤال الذي ينغّص عليه دائما : من هما أبواي ؟!

- فهو يرى الطفلَ في حضن أمه ، فيتمنى لو عرف دفء ذلك الحضن !
- ويرى الرجل يُقبِّل يدي والدته ، فيتمنى لو يشمّ يد أمه .. للحظة !
- يرى الرجل يؤدب ولده الشاب بصنوف الأدب (رقيقها وعنيفها) ، لكن بقلب الأب الذي يفيض رحمة وحرصًا على صلاح ولده ، فيتمنى لو رُفعت تلك العصا عليه ، ولو لمرة واحدة : فهي عصا تأديب الوالد .. التي لا تُرفع إلا بقلب والدٍ يتألم من رفعها على ابنه أكثر من ألم الابن منها !!

هذا حال من جهل أبويه !!

فكيف من جهل خالقَه وخالقَ أبويه والناسَ كلهم والخلقَ أجمعين ؟!!

المحطة الثانية :

تخيّلوا شخصا استيقظ يوما ، فوجد نفسه فجأةً في بريّةٍ شاسعة ، لم يعرفها يوما ، ولا درى كيف وصل إليها ، ولا لماذا وصل إليها ! وهل سيخرج منها !

ما مقدار فاجعته ؟! ما هو مقدار فزعه ؟!!

وأي بريةٍ أوسع من هذه الحياة ؟! وأي سؤال أفجع من سؤال من يجهل لماذا هو موجود

في الدنيا ؟ وما الدنيا ؟ وهل سيجد نفسه في مكان آخر بعد هذه الحياة كما وجد نفسه فيها ؛ لأنه يذكر أنه لم يكن موجودا في الدنيا { هَلْ أَتى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً } ؟!

المحطة الثالثة :

تخيلوا شخصا وجد نفسه في مفترق طُرق لا يعرفه ، والناس عند هذا المفترق مختلفون أشد الاختلاف ، كل مجموعة تدعي أن طريقها هو طريق النجاة وما سواه مهلكة ، وهناك من يقول : كلها منجاة ، وهناك من يقول : كلها مهلكة ، وهناك من يقول : قف مكانك تنجو ، وهناك من يقول : الهلاك في البقاء مكانك !!

كم ستكون سعادة هذا الشخص وإلى أي حد سيصل فرحه بمن يأتيه بالدليل على منجاته والدلالة في مفترَق الطرق هذا ؟!

كذا تكون شدة حيرة من لم يؤمن ، وكهذا تكون سعادة من عرف دلائل النبوة ، فاسترشد بتعاليمها !!

المحطة الرابعة :

تخيلوا شخصا تحت سلطة ملك قوي قادر ، لا تغيب عيون الملك ورقباؤه عنه لحظة ، وهو ملك إذا رضي أرضى ، وإذا سخط آلَـمَ أشدَّ الألم ، وهو ملكٌ يعطي من شاء ، ويمنع من شاء . ثم هذا الشخص لا يدري كيف يرضيه ؟! ولا كيف يتجنب مساخطه ؟!

كم سيعيش في قلق قاتل ؟! وكم سيكون شعوره بعدم عدالة هذا الحكم : أنه لا يعرف مراضي الملك من مساخطه ؟!

فإذا أرسل له الملك رسولا منه بقائمة محبوباته وقائمة مباغضه ، كم سيكون فرحه بها ؟! خاصة إذا علم انضباط هذا الملك بتلك القائمة ، وعدم مخالفته ما جاء فيها !!

وهكذا من عرف أنه مخلوق ، فعرف بمخلوقيته أن مربوب ، أي أن له ربًّا .

وهذا الرب : يظهر من خلقه ومن إبداعه فيه أنه رب حكيم عليم قادر .

ثم هذا المخلوق لا يعلم كيف يُرضي هذا الخالق ، ولا يعرف ما الذي يغضبه ؟! كيف إذن سينال رضاه ؟!

وهذه هي حاجتنا للإيمان : أن نحقق العبودية فينا .. أن نعرف كيف نرضي ربنا ، وكيف نبتعد عما يسخطه ، لكي يحفظنا بحفظه ، ويَكْلأنا بعنايته ، ويُسعدَنا : دُنيا ، وأُخرى .

المحطة الخامسة :

تخيل شخصا أحببتَه كل الحب ، تشعر أنه معك في كل لحظة ، في فرحك : فهو سبب فرحك ، وفي ألمك : فهو سلوانك ومعينك على تجاوز محنتك ، لا ترى في أفعاله إلا الجمال ، ولا ترى في آثار صفاته إلا الكمال ؛ ولكنك رغم ذلك لا تعرفه !! لا تعرف من هو ! ما هي صفاته ؟! لا تعرف كيف تتودّد إليه ؟! ولا إن كنت ستصل إليه يوما من الأيام ، أو لا يمكن ذلك ؟! وإن كنت ستصل إليه ، متى .. وكيف ؟! وما هي الحال التي يحبك أن تكون عليها عند وقوفك قبالة وجهه ؟!

كم سيكون ألم هجران هذا المحبوب ؟! وهو أعظم محبوب ، وهجره هو أشد صورة للهجر (حتى إنك لا تعرف عنه شيئًا) !! إلى حدٍّ سيصل فقدان العقل ولـهًا بهذا المحبوب بسبب مثل هذه العلاقة ومثل هذا الصدود ؟!

فإذا أرسل هذا المحبوب رسالته إليك ، وفيها صورته ، وفيها كل ما تتمنى معرفته عنه ، وفيها يذكر موعد اللقاء ، وطريقته ، وأن لقاءك به سيكون وصلا لا هجر بعده ، وإقبالا لا إعراضَ معه أبدًا !

كم سيكون فَرْقُ الحالين ؟!

وهل ينقص هذا الفرقُ عن فرقٍ كما بين السماء والأرض ؟!

وهكذا المؤمن بالنبوة والرسالة : عرف محبوبه عز وجل بأسمائه وصفاته التي تزيدنا به علما وله محبة ! وعرف متى يكون اللقاء { وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة } ، وعرفنا جواز عبورنا إليه { للذين أحسنوا الحسنى وزيادة } ، فالعمل الصالح هو جواز دخول الجنة (وهي الحسنى) ، وهذا هو مكان اللقاء به تبارك وتعالى (وهو الزيادة) .

إن هذه المحطات : ما هي إلا رشفات من نهر الإيمان الجاري في طريق حياتنا ومعركة بقائنا ، تبين أننا نحتاج الإيمانَ أكثر من احتياجنا للهواء والغذاء !!

فهنيئًا لمن شرب من الإيمان حتى ارتوى ، فهذا هو الذي لن يظمأ بعدها أبدًا ، وسيكون جزاؤه أن يشرب من حوض نبي الإيمان ورسول الإسلام شربةً يوم القيامة لن يظمأ بعدها أبدًا ! فالجزاء من جنس العمل : من شرب من حوض النبوة في الدنيا ، وهي هداية الإيمان وتعاليم الإسلام ، استحق أن يشرب من حوضه صلى الله عليه وسلم في الآخرة .

ما هو الإيمان ؟

الإيمان الذي نتحدث عنه هو الإيمانُ الإسلامي ، لا مطلق الإيمان ، وهو : الإيمان بالله ربًّا ، وبمحمد (صلى الله عليه وسلم) رسولا ، وبالإسلام دينا : هو التصديق اليقيني بذلك ، مع الرضا الكامل والقبول المطلق للعمل بمقتضى هذا التصديق .

فلا يكون الإيمان إيمانا بغير رضا وقبول ، بل لا يكون إيمانا بغير فرحٍ واعتزازٍ بهذا الإيمان ؛ لأن من عرف أصلَ وجوده (كيف وُجد) ، ومن هو مُوجده ، ولماذا وُجد ، وما هو مصيره ، وكيف يُحصِّل سعادة حاضره ومستقبله في الدنيا وما بعدها ، وهذا كله هو ما يصلُ المؤمنُ إليه بإيمانه ، وهو ما يجيب عليه الإيمانُ الإسلامي إجابةً كاملة = كيف لا يفرح بهذا الوضوح المتيقَّن لأهم مهم على الإطلاق لدى الإنسان .

والرضا والقبول هما أهم فرق بين مطلق (التصديق) و(الإيمان) ، وهو ما يجعل تعريف (الإيمان) بـ(التصديق) وحده تعريفًا ناقصًا . ألا ترى أن من الكفار من كان مصدقا ، ومازال رغم تصديقه كافراً ! لأنهم رفضوا القبول . كما أخبرنا الله تعالى عن حال فرعون وقومه تجاه دعوةِ موسى (عليه السلام) ودلائلِ صدقه { وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا } ، وكما قال تعالى عن المشركين المكذبين في الظاهر بالنبي صلى الله عليه وسلم { قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون } .

فمن الكفر ما ليس بكفر تكذيب ، ومنه :

- كُفْرُ الاستكبارِ والعناد (وهو كفر إبليس وفرعون وأبي جهل) .
- وكُفْرُ الإعراضِ وعدم الاهتمام (وهو كفر من اتخذ هواه وشهواته إلهًا له ، أو اتخذ دينَ مجتمعه الكافر وعاداتهم هي الإله ، فرفض التفكير في قبول الإيمان أصلا ؛ لأنه لا يريد

التغيير .. فقط) .

= فهما كُفْران ، وليسا بكفر تكذيب ، بل هما كفرا عدمِ قبول وعدم رضا بتحمل مقتضيات الإيمان ، نعم .. هما كفرا عدمِ استعدادٍ للقيام بموجبات هذا التصديق .. فقط .

وهذا ما يبين أهمية الرضا والقبول في فهم حقيقة الإيمان ، وهو ما كان يعبر عنه بعض أهل العلم بـ(الخضوع والتسليم) . وإنما اخترت لفظتي (الرضا) و(القبول) ؛ لسببين :

الأول : أن (الرضا) هو اللفظ الوارد في السنة ، و(القبول) بمعناه :

قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : «ذاقَ طعْمَ الْإيمَانِ : من رضى بالله ربًّا ، وَبالْإِسْلَامِ دينًا ، وَبمُحَمَّدٍ رسُولًا» .

وقال صلى الله عليه وسلم : «من قال حين يسْمَعُ المؤذِّنَ : أَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلا الله وحْدَهُ لا شرِيكَ له ، وأَنَّ محُمَّدًا عبْدُهُ ورَسُولُهُ ، رضِيتُ بِالله ربًّا ، وبِمُحَمَّدٍ رسُولًا ، وبِالْإِسْلَامِ دينًا = غُفِرَ له ذنْبُهُ» .

والثاني : أن (الخضوع والتسليم) ثمرة تنتج عن الرضا والقبول ؛ فمن رضي بالله ربا وحده لا شريك له في الخلق والملك والتدبير وصفات الكمال المطلق = أنّى لا يخضع لهذا الرب ولمقتضيات هذا الإيمان ؟! بعد هذا القبول والرضا !!

ولا يكون الإيمانُ إيمانًا بغير (التصديق) ، بل هو ركن الإيمان الأول : فقد يعمل بعض المنافقين بمقتضيات الإيمان وبأعمال المؤمنين : من صلاة وزكاة وجهاد وغيرها ؛ لكنه يكون مع عمله هذا كافرا ؛ إذا أضمر التكذيب في قلبه ، أو إذا أضمر بُغض الله تعالى أو بُغض رسوله صلى الله عليه وسلم أو بُغض الإسلام ؛ لأن التكذيب يناقض التصديق ، ولأن البغض يناقض رضا الإيمانِ وقبوله .

بل يُتصوّر من يرضى ويقبل بأعمال الإيمان الظاهرة ، إذا عرف ما له فيها من المصلحة الدنيوية : فصام (مثلا) لمنافع الصوم الصحية على البدن ، وصلى لمنافع الصلاة النفسية ولتجديد الحيوية وللطاقة الإيجابية التي تُنتجها الصلاة ، واحتكم للشرع لتحقيقه المنافع .

لكنه قد يكون (مع ذلك كله) مكذبًا بالنبوة ، بل بالله تعالى . فهذا لا شك في عدم إيمانه ؛ لأن التصديق هو أول أركان الإيمان .

ولا يكون الإيمان إيمانا بغير يقين ؛ لأن التصديق بغلبة الظن لا يمكن أن يحصل في أمر مصيري ، وفي قضية تأتي في رأس مهمات الوجود الإنساني . ألا ترى أنك لا يمكن أن تقبل خبر وفاة أحب الناس إليك بمجرد غلبة الظن ، وأنك لن تقبل هذا الخبر (حتى لو أخبرك به الصادق الذي تستفيد من خبره الظن الراجح) ؛ إلا بعد التيقن من صحة خبره ، وبعد القطع بوفاة من تحب ؟! إذِ الأمرُ العظيم ذو الأثر الكامل والتحوُّلِ الجذري على حياتك وعلى تفكيرك وعلى عموم قناعاتك وعلى خططك المستقبلية كلها ، لا يمكن أن تُصدِّقَ فيه ظنًّا راجحًا غيرَ متيقَّن ؛ فهذا الأمر : إما أن يكون يقينًا ، أو أن لا يكون أصلا !!

وعلاقة (اليقين) بالإيمان تظهر أيضًا من جهة أن (اليقين) هو المعرّض للزيادة والنقصان ، وهو المقصود بزيادة الإيمان ونقصانه في نصوص الوحي ، وليس المقصود بالزيادة والنقصان :

- التصديق ؛ فنقصان التصديق هو التكذيب أو الشك ، وبالتكذيب أو الشك لا يبقى هناك إيمان أصلا ، فلا يقال عنه : إنه نقصان إيمان ، بل : زوال إيمان .

- وليس نقصان الإيمان وزيادته هو عمل الجوارح الظاهر ؛ لأن العمل الظاهر للجوارح أثرٌ للإيمان ، وليس هو الإيمان نفسه .

لكن نقصان اليقين الذي نقصد عندما نذكر نقصان الإيمان : هو نقصانٌ في مراتب اليقين .. فقط ، وزيادته زيادة في مراتب اليقين .. فقط أيضًا .

ولكن تنبّه : أن نقصان الإيمان مع بقاء أصله لا ينزل أبدًا عن أن يكون يقينًا ، ولو في آخر مراتب اليقين . وإلا لو نزل عن أدنى مراتب اليقين (إلى أعلى مراتب الظن الراجح) ، لانتفى اليقين رأسًا ، فانتفى الإيمان بذلك ، وانتقضت عقدتُه كلُّها .

وكونُ اليقين مراتبَ أمرٌ لا يجهله المرء من نفسه في التفريق بين درجات يقينياته ،

فأنت قد ترى شخصا مقبلا بعد أن غاب عنك فترة ، فتتيقن أنه فلان ، فلا يزال يقترب حتى تزداد يقينا كلما اقترب ، فإذا خاطبك وتكلمتما وتماشيتما وذكر لك ذكرياته معك وأسرارك لديه التي لا يعرفها إلا هو ، بلغ اليقين في نفسك مداه . وأيضًا : ما يخبرني عنه الناس الصادقون ممن أثق بنقلهم ويتتابعون على نقله يصدِّقُ بعضُهم فيه بعضًا ، ثم أشاهده بأم عيني (بعد الخبر) مشاهدةً لا أرتاب فيها ، ليس كما يجيئني به الخبرُ الذي أتيقّنه من صفات مخبريه ومن تصديقهم بعضَهم ، لكني (مع ذلك) لم أشاهده بنفسي ، ولا عاينته معاينة المخبِرين ، وفي هذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((ليس الخَبَرُ كَالمعاينة : إن الله عز وجل أَخبرَ موسَى بمَا صنَعَ قَوْمهُ في العجلِ ، فلم يُلْقِ الأَلوَاحَ ، فلما عايَنَ ما صَنَعوا ، أَلقَى الأَلوَاحَ ، فَانكَسَرَتْ)) .

وطَلبُ أعلى مرتبة اليقين ، مع تَحَقُّقِ عاليها ، هو ما سعى إليه الخليلُ (عليه السلام) ، إذ قال لربه عز وجل: { رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي} ، فأخبر الخليل (عليه السلام) عن نفسه باليقين عندما أخبر عن إيمانه ، وطلب منزلة أعلى في اليقين من يقينه ، وحقَّقَ الله تعالى له رغبته .

فالخلاصة : أن الإيمان عملٌ قلبي ، يقتضي عملا ظاهرا للقادر عليه .

أو قُل : هو عمل القلب الذي لا بد أن يظهر أثره على الجوارح عند عدم وجود مانع .

فإن قيل : فما معنى : أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ؟

والجواب : معنى ذلك أن عبادات القلب واللسان والجوارح (وعبادات اللسان والجوارح لابد معها من عمل القلب بالنية والإخلاص واستشعار التعبّد لله تعالى) تعينُ على تقوية اليقين وزيادة مراتبه ، والمعصية تزيد من نقصان مراتب اليقين في القلب غالبا .

وكثرة العبادات الظاهرة لا يلزم أن تدل على زيادة اليقين ؛ لأنها قد تكون فاسدةً بالرياء والسمعة والعُجب . وهؤلاء الخوارج كانوا من أكثر الناس عملا ظاهرا ، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم العُبّاد الذين تراهم ركعا سجدا صوامين قوامين (رضوان

الله عليهم) : ((تحَقِرُونَ صلَاتَكُمْ مع صلَاتِهِمْ ، وصِيَامَكُمْ مع صِيامِهِمْ ، وعَمَلَكُمْ مع عمَلِهِمْ ، ويقرؤون القُرْآنَ : لا يجُاوِزُ حنَاجِرَهُمْ ، يَمرُقُونَ من الدّينِ ، كما يَمرُقُ السَّهمُ من الرّمِيَّةِ)).

والمعاصي الظاهرة لا يلزم أنها تدل على نقصان يقين من أتاها عمن لم يأتها ، فقد يقع في المعصية من هو أكثر يقينا ممن لم يقع فيها ؛ لأنه قد يعصي المؤمن التقي ، غفلةً وإغواءَ شيطانٍ واسْتِزْلالَ شهوةٍ ، ثم يستغفر أو يتوب . ألا ترى إلى ذلك الرجل الذي ما أكثر ما أُتيَ به إلى النبي صلى الله عليه وسلم في شُرب الخمر ، وقد جلده على شُربها مرارا ، فأُتيَ بهِ يوْمًا ، فأَمَرَ بهِ فَجُلدَ ، فقال رجُلٌ من الْقوْمِ : اللهم الْعنْهُ ، ما أكْثَرَ ما يُؤْتى بهِ ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ((لا تَلعَنُوهُ ، فوَالله ما عَلِمتُ إلا أنه يحِبُّ الله ورَسُولَهُ)) .

هذا في علاقة أعمال الظاهر (اللسان والجوارح) بزيادة اليقين (الإيمان) ونقصانه ، أما أعمال الباطن (أعمال القلب) : فهي وحدها التي تُعبّر تعبيرا حقيقيا تاما عن منزلة الإيمان ومرتبة اليقين ، ولا يعلمها إلا الله تعالى . حتى العبد نفسه ، لا يحسن تقدير عمل قلبه تمام التقدير ، ألا ترى إلى ما أخبر الله تعالى عنهم من خوفهم عدمَ قبولِ طاعاتِهم ونقصانَ ميزان أعمالهم { والذين يُؤتُون ما ءاتَـوْا وقلوبهُم وجلةٌ أنهم إلى ربهم راجعون * أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون } .

وحالة العمل الظاهر مع عمل الباطن ثلاث حالات :

أصحها : أن يكون عمل الظاهر موافقا لعمل الباطن في المنزلة ، فلا يكون عمل الظاهر زائدا على عمل الباطن (كما كان الخوارج) ، ولا يكون دونه (كذلك الصحابي الذي كان يشرب الخمر وهو محب لله ولرسوله) .

وشرها : أن يكون عمل الظاهر أكثر من عمل الباطن ، وهذا لا يكون إلا عملا مدخولا برياء وسمعة أو بعجب واغترار .

وخطر هذه الزيادة لعمل الظاهر على عمل الباطن أنه يؤدي بصاحبه إلى معاصي كثيرة ،

تكون أقبح من معصية من قلَّ عمل ظاهره على عمل باطنه . كما حصل مع الخوارج ، في استباحتهم لدماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم .

وفي ذلك كانت تقول أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) ، عمن خرجوا على عثمان (رضي الله عنه) وقتلوه ، مخاطبةً أحد جِلّة التابعين : «يا عبيدَ الله بن عدي ، لا يَغُرنَّك أحدٌ بعد النفر الذين تعلم ، فوالله ما احتقرتُ أعمالَ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى نَجَمَ القُرّاء الذين طعنوا على عثمان ، فقرأوا قراءةً لا يُقرأُ مثلُها ، وصلوا صلاة لا يُصلَّى مثلُها ، وصاموا صياما لا يُصام مثله ، وقالوا قولا لا نُحسن أن نقول مثله !! فلما تدبرت الصنيع : إذا هم والله ما يقاربون أعمال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فإذا أعجبك حسن قول امرئ فقل { اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله} ، فلا يَسْتَخِفنّك أحدٌ»[(١)] .

ودونه في السوء : أن يكون عمل القلب أكبر من عمل الظاهر ، لأنه يُخشى أن تنزل معصية الظاهر بعمل الباطن إلى مستواها ، وتستمر في النزول ، حتى مراحل خطيرة ، قد تصل حد الكفر باليأس من روح الله وبالعناد والاستكبار ؛ ولذلك قال بعض الصلحاء : المعاصي بريد الكفر !

أما قول فقيه مكة من أتباع التابعين سفيان بن عيينة «: إذا وافقت السريرة العلانية : فذلك العدل ، وإذا كانت السريرة أفضل من العلانية : فذلك الفضل ، وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الجور» ؛ فإنما جعل الفضل لمن كانت سريرته أفضل من علانيته

---

(١) أخرجه معمر في جامعه ، والإمام أحمد في فضائل الصحابة ، والبخاري في خلق أفعال العباد ، وأبو داود في الزهد ، وابن أبي الدنيا في المتمنين . وهو صحيح عنها رضي الله عنها ، رغم كلام الإمام الدارقطني في العلل (رقم ٣٤٧٩) ، عندما رجح المرسل . فهو يقصد ترجيح صورة المرسل ، وإن كان الصحيح أنه في الواقع متصل ، ومن نظر في طرقه عرف ذلك .

إذا كانت العلانية لم تصل حد ارتكاب الكبائر ونقصان تعظيم الله بالصغائر كنقصان تعظيمه عند مرتكب الكبيرة ، أما إذا وصلت العلانية هذا الحد من النزول عن السريرة فلن تكون فضلا ، بل ستكون خطرا ، كما سبق .

لماذا أتعرّض لامتحانٍ لم أختر دخوله ؟!

هناك رجل استدان من رجل دينًا كبيرا ، فاشترط عليه الدائن أن لا يستعمل الدين إلا في الخير ، فقبل الشرط بكل حرية ، وكان يمكنه الرفض .

ثم هذا الرجل لا ردّ الدين ، ولا شكر الدائن ، ولا التزم بالشرط ، فاستعمل الدين في الشر !

أي رجل يكون هذا في ميزان الإنسانية والأخلاق ؟!

ربما احتج هذا الإنسان بالنسيان والغفلة التامة عن الدائن والدين والشرط ، ربما كان قد فَقَدَ الذاكرةَ فعلا . فقام الدائنُ بإرسال رسول منه يبلغه بالدين الذي عليه ، وبأنه كان قد وافق مختارا أن يتحمل أمانة هذا الدين ، وأن يؤدي شرطَه . فلما جاء إلى هذا الرجل رسولُ الدائن (وهو رسول يعرفه الرجلُ قبل تَحمُّلِه لهذه الرسالة بالصدق والأمانة) يذكّره بما كان قد نسيه ، فقال له الرجل : لا أذكر شيئا مما تقول ! ولا أعرف صدقك من كذبك في هذا الخبر ، ولو كان هذا قد وقع ، كما تزعم ، لَتَذكّرْتُه لما أن ذكّرتني ! فأقام له الرسول البينات الدالة على صدقه (كشهود من أصدق الناس وأوفاهم له) ، وأثبت له بالعديد من الدلائل إثباتًا لا يدع مجالا للشك أنه كان قد استدان دينا بشرط ، وأنه عليه الالتزام بهذا الشرط . هل يحق لهذا الرجل أن يستمر في الاحتجاج بالنسيان ؟ هل يكون نسيانه (بعد تذكيره ، وبعد إثبات وقوع ما كان قد نسيه) مُجيزًا له التَّملُّصَ والتهرُّبَ من أداء واجب الدائن عليه ؟!

فإن قال الرجل بعد ذلك : لماذا أتعرض لامتحانٍ لم أختر دخوله ؟ هل سيكون السؤال والاعتراض في محله ؟! أم سيكون لا محلَّ له أبدًا ؟! بعد أن تبين أنه هو من اختار دخول هذا الامتحان ، وأنه هو من رضي أن يضع نفسه على محكّ الإكرام والإحسان أو الإهانة والعقوبة

بدخوله لهذا الامتحان .

الواقع أن ذلك التساؤل ليس في محله أصلا ؛ لأن الإنسان اختار دخول الاختبار بمحض إرادته الحرة ؛ أما نسيانه لهذا الاختيار فلا يعفيه من سداد الدين ومن الالتزام بشرطه ؛ خاصة بعد تذكيره ، وبعد إقامة الدليل الدال على نسيانه وعلى وجوب قيامه بأمانة الالتزام الذي اختاره هو لنفسه .

لكن .. هل هذا هو ما وقع للإنسان حقا ؟!

نعم .. لقد وقع ، وأعظم منه بمراحل في إقامة الحجة وإيجاب الالتزام ، ولم نخترع نحن هذا الجواب من عند أنفسنا لنهرب به من إحراج هذا التساؤل :

يقول الله تعالى {إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا } .

قال ابن عطية (ت٥٤١هـ) في تفسير الأمانة : «كل شيء يؤتمن الإنسان عليه : من أمر ونهي ، وشأنِ دِينٍ ودنيا ، فالشرع كله أمانة » .

فالآية صريحة أن حمل أمانة التكليف كانت بعد عرض على المخلوقات ، وهو عرض اختياري حرّ :

- بدليل إباء السماوات والأرض والجبال وشفقتها من حملها ، فاستطاعت بالرفض أن لا تكون مكلفة بحمل أمانة الحرية وواجب التكليف .
- وبدليل أن العرض لا معنى له إذا لم تسبقه حرية الاختيار .

وحمل الأمانةَ الإنسانُ ، فنال بذلك تكريم الحرية ، وأن تُسخَّر له السموات والأرض { أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ اللهَّ سخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ } .

وذكر الله تعالى أيضًا مرحلة إشهاد بني آدم على ربوبيته في مرحلة إيجادهم الأُولى ، وهي مرحلة سبقت مرحلة إيجادنا الثانية في عالمنا المشاهَد هذا ! فقال تعالى { وإِذْ أَخَذَ ربُّكَ من بني آدمَ من ظهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَستُ بِربِّكُمْ قالوا بلَى شَهِدنَا أنْ تقُولُوا يوم

الْقِيَامَةِ إِنَّا كنا عن هذا غافِلِينَ * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون } .

قال ابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) في تفسيره : «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد واذكر يا محمد ربك إذ استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم فقررهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض شهادتهم بذلك وإقرارهم به» . ثم قال : « يقول تعالى ذكره شهدنا عليكم أيها المقرون بأن الله ربكم ؛ كيلا تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين ، إنا كنا لا نعلم ذلك ، وكنا في غفلة منه . أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ، اتّبعْنا منهاجَهم ، أفتهلكنا بإشراك من أشرك من آبائنا واتّباعِنا مِنْهاجَهم على جهلٍ منا بالحق ؟!» .

وقد نص جماعة من أئمة التفسير أن هذا العهد والميثاق لما أُخذ على بني آدم كانت لهم عقول تامة تُصَحِّحُ التخييرَ وأَخْذَ العهد ، كسهل التُّسْتَرَي (ت٢٨٣هـ) ، والواحدي (٤٦٨هـ) ، والعز ابن عبد السلام (ت٦٦٠هـ) ، وغيرهم كثير . وإنما أوردت تنصيص هؤلاء الأئمة على أن بني آدم عند أخذ العهد عليهم كانت لهم عقول ؛ لكي أُبيّن أن هذا المعنى قد كان واضحا عند علمائنا الأقدمين . مع أنه معنى واضح ، فهو لازم التخيير والإشهاد أصلا ، فلا يصحُّ تخييرٌ ولا يتمُّ إشهادٌ بلا عقل .

وقد جاء في صحيح السنة والآثار ما يوضح بعض تفاصيل هذا الموقف العظيم ، وأنه كان على الأرض ، وفي وادي نعمان الذي يمر بجنوب عرفات ، وأن خَلْقنا كان في غاية الصِّغَر ، كأمثال الذر (كما جاء في الحديث) .

وبعد هذا البيان ، والذي تضمن إثبات الكتاب والسنة لوقوع تخييرنا في حمل الأمانة ، وأننا اخترنا حملها بمحض إرادتنا ؛ أليس هذا مما يلفت النظر ، بل أليس هذا مما يثير العجب : أن يكون إشكال هذا السؤال : « **لماذا أتعرض لامتحانٍ لم أختر دخوله ؟!» قد أُجيب عنه في القرآن الكريم بكل وضوح منذ نزول الوحي على نبيه صلى الله عليه وسلم!!**

فلم يكن هذا السؤال غائبًا عن التقرير الإيماني في الإسلام ، ولا كان ذكر جوابه مما

أغفله الوحي في الكتاب والسنة ؛ بل كان الجواب فيهما حاضرا بكل وضوح ! وهو أيضًا الجواب الوحيد الصحيح الممكن : وهو أننا قد خُيرنا ، فاخترنا ، بكامل حريتنا وعقلنا !! وأخذ ربنا علينا العهد بذلك ، وأشهدَ علينا ؛ ليبين لنا بالإشهاد أن ذلك العهد قد أُخذ علينا في حالة فهمٍ تامٍّ منا ، وحضورٍ عقليٍّ كامل ، واستيعابٍ واضح لأبعاد هذا الميثاق ، ولم يكن كلاما مرَّ مرور اللغو أو اللهو ، بل كان كلاما في محضر مهيب ، تُؤخذ فيه العهود والمواثيق ، كمجالس القضاء ! بل ما مجالس القضاء بشيء ، أمام ذلك المحضر الجليل المهيب العظيم !! مما يستوجب حِفْظَ كل لفظة ، ووَزْنَ كل حرف ، وحسابَ عواقبِ كل نَفَس !

نعم .. هناك جواب عقلي آخر ، وهو التسليم ، وليس أي تسليم ، بل هو التسليم العقلي (أي الذي يوجبه العقل ، وليس فقط يصححه) ، وهو التسليم القائم على أن من آمن بالخالق ، لزمه الإيمان بتمام حكمته وعدله ، فيَكِلُ ما لا يعلم وجهَه أو حكمتَه من أفعال الله عز وجل على ما تيقّنه من عدله تعالى وحكمته البالغة ، فما دمتَ متيقنا من عدل الله تعالى وحكمته ، فلا معنى للاعتراض على ما أتيقن بما لا أتيقن . وهذا التسليم وهو التسليم الوارد في قوله تعالى { لا يُسأل عما يفعل وهو يسألون } ، فالمسؤول هو من يحتمل فعلُه : العدلَ .. والظلمَ ، والصلاحَ .. والفسادَ ، والحكمة .. والاختلال ، أما من لا يحتمل فعلُه ؛ إلا : أعدلَ العدلِ ، وأصلحَ الصلاحِ ، وأَحْكَمَ الحكمة = فلا يجوز أن يكون محلا للتساؤل أصلا !

لكن الله تعالى – رحمةً بنا – لم يُثقل علينا في الإكثار من الإحالة إلى هذا التسليم ، بل أجابنا عما لا يجعل ذلك التسليم منفردًا بالإجابة على كل سؤال ؛ لكي لا يعجز ذلك الجواب التسليمي عن تحمّل أثقال كل الأسئلة عند بعض الناس ، ولكي لا تنفر بعض النفوس من كثرة التكرار ! فبتعدُّدِ الأجوبة ، تتعاون هذه الإجابات المتعددة في دحض الشبهات ، وتوضيح المشكلات ، وإجابة التساؤلات .

وتتميما لهذا الجواب :

فإن قيل : ما فائدة هذا التخيير إذا كنا نسيناه ؟!

والجواب : له أعظم فائدة ؛ لأنه ينفي الظلم الذي تتوهمه من عدم التخيير . وأما النسيان : فهو حجة لك في عدم العلم بذلك التخيير ؛ فإذا جاءك العلم بذلك على لسان الصادق الذي أقام الأدلة على صدقه ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يبق لديك حجة في النسيان على عدم العلم . كما سبق في مثال : الدائن والمدين !

وقد أورد هذا الإشكال والجواب عليه من أئمة المسلمين المتقدمين جماعة : كأبي المظفر السمعاني وفخر الدين الرازي في تفسيريهما ؛ مما يدفع شبهة اختراع الجواب عما يتوهمه المغرورون إشكالا جديدا هم أول من تنبه له !

وبعد أن انتهينا من هذا الجواب : دعونا نكمل جوانب المثال الذي بدأنا به ، لنعلم إلى أي مدى يبلغ سوء هذا الاعتراض على حكمة الخالق عز وجل !

فتخيلوا ذلك الدائن الذي أدان ذلك الرجل :

- إذا كان لا يريد سداد الدين أصلا ، مع أنه دين ضخم جدا ! ولكنه فقط يريد الاعتراف بالجميل ؛ لا لأنه ينتفع بهذا الاعتراف ، ولا لأنه يحب الفخر التعالي ، ولكن لأن الاعتراف بالجميل خُلُقٌ كريم ، فإذا كان جميلا كبيرًا ، كان الاعتراف به واجبًا كبيرًا ، وسيكون نُكرانُه خُلُقًا لئيما ، وخبثًا نفسيًّا . ولذلك فدائنك يريد منك الاعتراف بالجميل ؛ لأنه يعلم أن صلاح حالك وصلاح حال من حولك هو في الأخلاق الكريمة ، وأنك بلؤم الأخلاق وخُبث الطويّة تُفسد حياتك وحياة الناس حولك .
- وإذا كان لما أمرك أن تفعل الخير بذلك المال ، ولما أرسل لك رسولا يذكّرك بما نسيته ، ومع الرسول دلائل صدقه ، هي دلائل النبوة = أرسل لك مع الرسول خطةً لنجاح كل مشاريعك ، خطة تحقق لك السعادة والربح الوفير . وهي خطط

مضمونة مائة في المائة ، لا يمكن أن تخفق .

ثم هذا الرجل : جحد الدين ، وجحد الدائن ، ورفض الالتزام بعهده معه . ثم لم يلتزم أيضًا بخطة نجاحه ، التي جاءه بها الرسول ، واخترع له طريقةً للنجاح بزعمه ، أقل ما يقال عنها : إنها خطة ظنية ، قد تنجح ، وقد لا تنجح ، وقد تُفسِد أكثر مما تُصلِح ، وترك الخطة اليقينية .

ثم بعد هذا الجحود والنكران والإفساد ، ربما نسب ذلك الرجل الدين لغير دائنه ، وصار يشكر شخصا مدينًا مثله ! كما يفعل المشركون ، الذين يعبدون غير خالقهم عز وجل !!

أي رجل سيكون هذا ؟! وأي عقوبة يستحقها ؟!!

لماذا خلقني أصلا ! لماذا أعطاني الحرية ؟!

بعد أن أجبنا على التساؤل القائل : لماذا أتعرض لامتحانٍ لم أختر دخوله ؟! ببيان أنه سؤال خطأ من أساسه ؛ لأن الصحيح أن الإنسان قد اختار دخول الاختبار بمحض إرادته .

قد يقول قائل : لماذا خلقني أصلا ؟! لم يخيرني في خلقي أصلا ! لا تقل لي : إنه خلقني بعد أن خيّرني !! لأنه لا يمكن أن يخيرني إلا إذا كنت موجودا ، ولا يمكن أن أُخيَّر وأنا معدوم .

والجواب :

الجواب الأول : هذا السؤال لم يأت أصلا ؛ إلا بسبب اختيارك تحمّل أمانة التكليف . فلولا أنك تحملت أمانة التكليف ، ولولا أنك تريد التهرّب من واجب حفظ الأمانة التي تعهّدتَ بحملها ، لما سألت هذا السؤال أصلا . فالسموات والأرض والجبال اللواتي أبين من حمل الأمانة وأشفقن منها لن يسألن هذا السؤال أبدًا ؛ لأنهن ما حَمَلْنَ أمانة التكليف ، ولا شعلان بالرغبة في التملّص من ذلك العهد !

إذن : فالسؤال يجب أن تعود به إلى نفسك : لماذا قبلتُ تَحَمُّلَ الأمانة ؟ لا أن تسأل : لماذا خلقني ؟ لأن خَلْقَك لم يكن هو سبب مشكلتك التي تدّعيها ، وإنما مشكلتك في كونك قد تحمّلت الأمانة !!

الجواب الثاني : هل تعلمون من هو أعق الناس بوالديه ؟ هو من يعتبر مجرد إنجابهما له أكبر جناية عليه ؛ لأنه لم يُستشر في إنجابه !!

على حدّ قول القائل :

هـذا جنـاه أبي عـليّ   ومـا جنيـتُ عـلى أحـد

وأي نعمة أسبق من نعمة الإيجاد ؟! وأن يكون الإنسان شيئًا ، بعد أن لم يكن شيئا ؟! { هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً } .

فإذا ما نظرتَ إلى خَلْقِك بهذا الإتقان ، إلى تسويتك على هذه الصورة الكريمة ، إلى استخلافك في الأرض ، إلى تسخير ما في السموات والأرض لك ، إلى إسجاد الملائكة لك ، إلى إكرامك بحرية الاختيار = فإنك سترى آيات حب الخالق عز وجل لك ! إذ لا يمكن إلا أن يكون من أتقنك وسوّاك واستخلفك وسخَّر لك وكرّمك على ملائكته إلا أن يكون قد أحبك !

فمن لم ير حب الله تعالى للإنسان في خِلقته فهو أعمى البصيرة مطموس القلب !

فإذا قابلت هذا الحب بالجحود ، أو بعصيان التمرد ، أو باعتراض النكران والتشكيك = فقد رضيت لنفسك أن تكون في أقبح موضع من خبث الطوية وانعدام المروءة وسوء الأخلاق وسفالة الطبع وسفاهة العقل .

اقرؤوا الحب في الآيات التالية ، ولا تقرؤوا فيها غير الحب ، لتعلموا كم نخطئ عندما لا نعامل الله تعالى بالحب أولا :

- يقول تعالى { يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ } .

قال بعض الصالحين : إنّما قال : {بربّك الكريم} ، دون سائر أسمائه وصفاته ؛ لأن فيه لفتةً إلى الإجابة ، وكأنه يلقّنه الجواب ، حتى يقول : غرّني كرمُك يا ربّ ! وهذا جواب نافع في سياق الخجل ، وطلب الصفح ، لا في سياق الاحتجاج ، والإصرار على العصيان !

ثم في هذا السياق الذي يفيض حبا ، يقول الله تعالى{ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ } ، فدليل حبه وإكرامه الذي من فَيْضِه قد غَرّ جهلَ الإنسانِ وجرّأه على معصيته هو أنه قد خَلَقَكَ .. لا أي خلق ، بل لقد سَوَّاكَ قويمًا لا عيب فيك ، وليس هذا فقط ، بل

أتم ذلك بأن أنعم فجعلك معتدل الخلقة مهيّأً لتكون أشرف من على وجه الأرض !

- { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } .
- { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا } .
- { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}
.
- { ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } ، أي خَلْقُ الإنسان هو أحسن خلق ؛ لأنه تعالى جعله هو دليلَ كونِه أحسنَ الخالقين .

وقفوا عند قوله { خلقا آخر } ، فالإنسان شيءٌ آخر ، هو غير كل الخلق ، وجاء ذلك في سياق الامتنان والاستدلال به على إحسان الصنعة وإتقان الخلق . كما يقول الناس في سياق المدح والثناء ، بعد ذكر الممدوحين والمثنى عليهم : أما فلان فشيء آخر ، أما فلان فغير .. ! يعنون أنه نمط يفوق غيره بمراتب في اكتمال صفات المدح وتمام أسباب الثناء عليه ، حتى إنه لا يستطيع الاقتراب من منزلته أحد .

هل يكون هذا الإبداع في صنعة الإنسان إلا عن حب ؟!

- { اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } .

فبدءا بجعل الأرض قرارا لنا ، لا لغيرنا ، وإن صارت لغيرنا قرارا ، فهي لنا بالأصالة ولهم بالتبع { جَعَلَ لَكُمُ }!

ومرورًا بجعل السماء لنا أيضا (فهي معطوفة على ما قبلها) بناءً حافظا .

ووقوفا عند قوله { وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ } ، وعندما يقول الخالق المبدع عز وجل : فأحسن ، فما فوق إحسانه لما وصفه بالإحسان حسنٌ ، وهو تمام الحب

والإكرام .

وتأمُّلا لقوله تعالى { وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ } ، فلم يجعل طعامنا خبيثا ، كبعض خلقه . بل طيّب لنا طعامنا وشرابنا ، فجعله رزقا حسنا . فهو إيجادٌ من عدم ، مشفوع بعناية دائمة ، تتمثل (فيما تتمثل) في الرزق الطيب .

وأخيرا : قفوا عند لذة قوله تعالى ، عندما يَتحبَّبُ إلينا بقوله في ختام الآية { ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ } ، نعم .. ذلك الذي أحبنا والذي تولى كل إحسان إلينا (هو ربنا) ، والرب هو المربي والرازق والحافظ والمعين .

وآيات الحب الرباني لخلقه الإنساني كثيرة ، لكن لمن قرأ كتاب الله بعين الحب وقلب الحب .. فقط !

فما أشد قبح من اعترض على هذا الحب الجليل ؟! لأنه عجز عن الوفاء بعهده ، ورضي لنفسه نكرانَ نعمة وجحودَ من غمره بنعائم حبه !!

وانظر كيف توصّل إلى هذا المعنى الصحيح لتفسير سبب الخلق الشاعرُ المصري محمود أبو الوفا (ت١٤٠٠هـ) ، فيذكر هذا المعنى بسلاسة الوضوح ودون تعقيد الفلسفة :

يـــا ربِّ أنـــت خلقتنـــي ... وكـــما تشـــاء خلقتنـــي

صـــوّرتني في صُـــورتي ... وأنـــا كـــما صـــوّرتني

ومـن النفيس ومـن الخسيـ ... ـــس مـن المعـادن صُـغتني

مـا كـان لي في الأمـر مـن ... شيءٍ ، ولا خيّرتنـــــــــي

وكـــما أردتَ بـــأن تكـــون ... خليقتـــــي كـــــوّنتني

وبـــأي لـــونٍ لم أكـــن ... إلا كـــــما لـــــوّنتني

أتُـــراك كنـــتَ أتيـــتَ بي ... مـــا لم تكـــن لتحبنـــي ؟!

نعم كان الشاعر قد أتبع هذه الأبيات بسؤال استشكال ، سيكون مجال سؤال جديد بإذن الله ، حيث ختم الأبيات بقوله :

بقيـــت هنـــاك قضـــيةٌ تحـــت الضـــلوع تغـــزّني
هــي كيـف يُشـقيني الوجـو دُ ، وأنـــت فيـــه تحُبنـــي؟!

الجواب الثالث : التسليم العقلي ، والذي هو قوله تعالى { لا يسأل عما يفعل وهم يسألون } ، والذي سبق الحديث عنه ، ولن نمل من تكراره .

أما إذا تدنَّى هذا الجاحد ليقول : لماذا أعطاني الحرية ؟!

فهو أقبح من عبد ، أعتقه سيده ، وجعله حرا ، فأفسد وفسد ، حتى إذا وقف على شفير الهلاك بسبب اختياره الحر ، أخذ يلوم سيده : لماذا أعتقتني ؟ لماذا جعلتني حرًّا ؟!

أيُلام السيدُ الذي أعطاك شرفَك وكرامتك في حريتك ؟! أم تلام أنت على سوء استثمارك لتلك الحرية ؟!

فكيف إذا كان السيد من حرصه عليك : أعطاك الحرية ، وأعطاك مالا (هي نعم الله عليك) ، ثم أرسل لك أفضل الخبراء لينصحوك كيف تستثمر مالك (هو رسل الله بالهداية والخير إلى البشرية) ؟ وليبينوا لك كيف تستفيد من حريتك ، لتكون سببَ سعادتك . فخالفتَهم ، وعصيتَ نصيحتهم ، حتى هلكت . ثم جئت بعد ذلك : تلوم سيدك على إعطائك الحرية !!

هذا هو حال من اعترض على إعطائه شرف الحرية وكرامة الاختيار !

والعجب ممن يعترض بهذا الاعتراض ، هم في الغالب ممن يدعي تقديس الحرية ، فإذا به يتمنى لو لم يكن حرًّا !!

والعجب من هؤلاء : أيجهل أحدهم أن اعتراضه هذا هو نفسه من حريته ، ولولا أنه حر لما اعترض به أصلا ؛ فما أعجب حال من يعترض بالنعمة على النعمة !! ويجحد الفضل بالفضل !!

لماذا يخلق الله خلقا ، ثم يعذبهم في الآخرة ؟

الأسئلة في أصول الإيمان طبيعية ، وليست ممنوعة ، وقد سألها الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) !

- **كما سأل الخليل عن بعث الموتى** { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } .
- **وكما استغرب صاحب القرية أن يحيي الله الموتى** { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .
- **وكما سأل موسى أن يرى الله تعالى عيانا** { وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ } .

ومن الأسئلة المهمة في أصول الإيمان : لماذا يخلق الله خلقا ، ثم يعذبهم في الآخرة ؟

هذا السؤال مباح إذا كان للتعلم ، لا للتمرد على الخالق سبحانه !

نعم مباح ، وقد ذكره السلف ، ورووا فيه ما يجيب عليه !!

فقد ثبت عن عما بن ياسر (رضي الله عنهما) أنه قال : ((قال موسى (عليه السلام) : يا رب ، خلقت خلقا تدخلهم النار وتعذبهم ؟! فأوحى الله عز وجل اليه : كلهم خلقي .

ثم قال الله تعالى لموسى : ازرع زرعا ، فزرعه ، فقال : اسقه ، فسقاه ، ثم قال له : قم عليه ، فقام عليه أو ماشاء الله من ذلك ، فحصده ، ورفعه . فقال الله تعالى : ما فعل زرعك يا موسى ؟ قال : فرغت منه ، ورفعته . قال : ما تركت منه شيئا ؟ قال : ما لا خير فيه . قال الله تعالى: كذلك أنا ، لا أعذب إلا من لا خير فيه [وفي رواية : فإني لا أدخل النار إلا من لا خير فيه])) .

ولو قيل : إن هذا الأثر له حكم الحديث المرفوع (أي : من كلام النبي صلى الله عليه وسلم) لكان قولا وجيها ؛ لأن عمارا (رضي الله عنه) ليس معروفا بالأخذ عن أهل الكتاب . مع كونه خبرا لا مجال للاجتهاد فيه ؛ لأنه خبر عن ماضٍ وواقعةٍ محكية ، وليست استنباطا لـحُكْمٍ أو فائدة من نص يمكن أن يستخرجها العقلُ بالتأمل والاجتهاد .

ومع ذلك ، حتى لو كان هذا الخبر مما أخذه عمار بن ياسر (رضي الله عنهما) عن أهل الكتاب ، فاحتجاجي به ما زال قائما ؛ لأني سأحتج حينئذٍ بإيراد عمار (رضي الله عنه) له ، بغرض الإفادة منه ، مما يدل على قبول عمار (رضي الله عنه) لفكرته ، وأنه لم يَرَ فيها ما يعارض تَصَوُّرَه الاعتقاديَّ الذي تَعلّمه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . كما أنني أحتج أيضًا بإيراد الأئمة له في كتبهم ؛ بغرض الإفادة منه كذلك ، كالإمام عبد الله بن المبارك والإمام أحمد في كتابيهما في الزهد .

فإذا رجعنا إلى هذا الخبر ، نجد أن جواب الله تعالى على سؤال موسى (عليه السلام) تضمّن جوابين اثنين :

الجواب الأول : أن الله تعالى لا يُسأل من خلقه في خلقه ؛ لأنه خالقهم ، كما قال في هذا الأثر في أول جوابه على سؤال موسى عليه السلام : ((كلهم خلقي)) . ومِلكيّةُ الخالق الحقيقيةُ التامة ليست كملكية المخلوق الإضافية القاصرة ، فتملُّكُ الخالقِ المخلوقَ وعبوديةُ المخلوق للخالق لا تبيح للمخلوق الاعتراض على خالقه ؛ لأنها ملكية تامة ، لا يعرف المخلوق ولا يمكن أن يعرف مثلها لنفسه ، ولذلك قال الله تعالى { لا يُسأل عما يفعل

وهم يسألون } .

وحتى أوضح ذلك : أرأيت عقل المخلوق الذي يعترض به ، أوليس هو مخلوق للخالق عز وجل أيضًا ؟! إذن فالعقل مخلوقٌ مملوكٌ لله تعالى ، هو الذي وهبك إياه أيها الإنسان = فكيف يصح أن تعترض بما خلقه الله تعالى فيك (وهو عقلك) على ما خلقه فيك ؟!!

بل أضيف : بأن اعتراض المخلوق هو نفسه أيضا مخلوق للخالق تعالى ، نعم .. الاعتراض نفسه ما خلقه إلا الله تعالى ، وإن كان هذا الاعتراضُ فعلا للعبد بإرادته واختياره ؛ إلا أنه (مع ذلك) مخلوق لله تعالى = فكيف يصح أن تجعل الرأي الذي خلقه الله فيك سببا للتمرد على خالقه فيك ؟!!

هذا مشهد مضحك !! وغاية في الجنون .. لو تأملته !!

لو كان يمكنك الاعتراض بغير ما وهبك الله إياه وبغير ما خلقه فيك ، لأمكن أن نناقش الاعتراض ، لكن أن تعترض على الخالق بما خلقه فيك ، فهذا جنون !! وفكر في ذلك قليلا قليلا : لو لم يخلق الله عز وجل هذا الاعتراض ، هل كان يمكنك الاعتراض به على خالقك ؟! فكيف تظن أن الله تعالى عندما خلق فيك الاعتراض سيكون اعتراضا يجيز لك التمرد عليه ؟!! كيف تظن أنك بهبة الله تتمرد على الله ؟!!

وتنبه : أنا لا أتحدث عن نكران للجميل فقط ، وأن تستعمل المعروف في الإساءة إلى من أحسن إليك ، على حد قول القائل :

أعلِّمُه الرمايةَ كلَّ يومٍ ... فلما اسْتَدّ ساعدُه رماني
وكم علّمتُه نَظْمَ القوافي ... فلما قال قافيةً هجاني

لا أتحدث عن ذلك ، مع أنه يستحق الحديث عنه هنا ! لكني أتحدث عن صحة هذا الاعتراض عقلا !! فالعقل لا يجيز لك الاعتراض بمخلوقيته على خالقه أصلا !!

تأمل هذا الأمر أيضا :

- هل يمكن أن يكون عقل المخلوق وحكمته أكبر من حكمة الخالق ؟! أم لا بد أن يكون الخالق أحكم ؛ لأن الواهب لا يهب إلا مما عنده ، ولا يمكن أن يهبك ما ليس لديه ، كما قيل : فاقد الشيء لا يعطيه .

وهذا يعني أنه لا يمكنك أن تكون أعرف بالحكمة ممن وهبك الحكمة ، لا يمكن أن تكون أعلاف بالحق ممن حقّق الحق وأقدرك على معرفته !

- تأمل عقول العقلاء كلهم ، عقول العباقرة كلهم منذ وجدت البشرية ، كلها لو جُمعت في عقل رجل واحد ، عقل واحد يجمع عقول الخلق كلهم ، عقل واحد يجمع حكمة الحكماء جميعهم ، كم سيكون هذا العقل ذكيا عبقريا حكيما ؟!! فهذا الذي تفرق في عقول الناس من العقل والحكمة .. كله لو اجتمع : لن يكون شيئا أمام حكمة الواهب عز وجل ، فكيف وهو عقلٌ مفرق في الخلق كلهم ؟!!! فكيف يمكن أن نغتر ؟! كيف يمكن نظن أن عقلنا قادر على أن يعرف حكمة فوق حكمة من حَكَم الحكمة وخلق علمنا فينا ووهبنا عقلنا الذي نفكر به ؟!! يقول تعالى {اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم } ، { يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا } ، {ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء } .

والجواب الثاني : أن الله تعالى لا يعذب إلا الأنفس الخبيثة ، التي تُـخَبِّـثُ نفسَها { قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها } ، أي : خاب من أخفى نفسه في ضد الزكاء والطهر ، بالإغواء والإضلال . فهي أنفس تستحق التعذيب ؛ لأن عذابها هو العدل في حقها ، وهو الحق الذي قامت عليه السموات والأرض .

فالسؤال نفسه غلط : « لماذا يخلق الله خلقا ، ثم يعذبهم في الآخرة ؟» ؛ لأنه مبني على أن الله تعالى خلقهم من أجل أن يعذبهم ؛ وهذا غير صحيح . فهم من اختاروا أن يكونوا معذبين ، ولم يسلبهم الله تعالى حرية الاختيار .

فإن كان المقصود من السؤال : ما الحكمة من خلق هؤلاء المعذَّبين ؟ فسيكون هناك

العديد من الأجوبة ، منها الجواب الوارد في هذا الأثر ، والذي يبين أن وجود الخبث الذي لا يُعرف بخبثه إلا بوجود الطيب معه ، فبضدها تتميز الأسياء . وهذا التمييز يجعل الحكمة من وجود الخبثاء حكمة ظاهرة ، وهي تـمييز الخبيث من الطيب { مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ } ، {لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } .

وكما كانت مصلحة زراعة الزروع الطيبة لا تخلو من وجود زرع لا خير فيه ، فلم يقبح بذلك زرع الزروع ، بحجة وجود زرع لا خير فيه = كذلك كان خلق النفوس الطيبة لا تخلو حكمته من وجود نفوس خبيثة ، فلم يكن ذلك مستقبحا !! وكما كان في وجود الزرع الذي لا خير فيه مصلحة لوجود الزرع الذي فيه خير ، كذلك كان وجود أهل الصلاح لا تتم حكمته إلا بوجود أهل الفساد ، وبذلك وحده صح التكليف ، وبه تم التميّز البشري في التخيير وتحميل أمانة الطاعة الطوعية ، وبه وقع التكريم للبشر ، وبه حق الحق بأن يكون هناك حساب وجنة ونار . لأن التكليف لا يتم إلا بالتمكين من الاختيار والحرية ، والتمكين من الاختيار الحرّ يُوجب تَعدُّدَه واختلافَه ، وهذا التعدد والاختلاف يوجب أن يكون منه : ما هو خير وصلاح ، وما هو شر وفساد . وهذا يوجب أن يستحق خلقٌ الثواب لصلاحهم الذي اختاروه ، وأن يستحق آخرون العقاب لفسادهم .

هكذا يجيب هذا الأثر عن سؤال من أعمق الأسئلة ، فلا مُنع فيه السؤالُ ، ولا قَصَّرَ فيه الجوابُ !!

لو قال هذا القول غير عمار (رضي الله عنه) ، لأنكره بعض المنتسبين للسلف ، جهلا منهم بالسلف ، بدعوى أنه خوض فيما لا يجوز الخوض فيه !!

رحم الله السلف ! كم نَنْتَسِب إليهم ، ثم نخالفهم !!

أخيرًا : تذكّروا أن هذا السؤال (والاعتراض) قديمٌ قِدَمَ موسى (عليه السلام) ، أو قِدَمَ عمارٍ (رضي الله عنه) ، فأول خطوات التواضع يجب إذن أن تكون .. هي :

- أن تعلم أنك لست أول من اكتشف هذا السؤال ، فهو سؤال يدور في خَلَد البشرية منذ عصورها السحيقة !!
- وأن هذا التساؤل لم يَحُلْ دون إيمان المؤمنين ، لا لأنه سؤالٌ لم يخطر ببالهم (كما سبق) ، بل لأنهم عرفوا أنه لا يمكن أن يَنْقُضَ إيمانهَم ، ولا أن يزعزع يقينَهم !!

لماذا أحبه ؟! وهو يُلزمني بطاعته ؟! ويريد مني الخضوع له ؟!

تخيل رجلا أخذك من ملجأ الأيتام ، وأنت في أسبوعك الأول ، وأنت رضيع ، فقام على تربيتك أحسن تربية : غذاك بكل غذاء يقيم أودك ويقوي جسدك ، وحماك من كل ما يؤذيك ، عاملك خيرا مما يعامل الآباء أبناءهم حبا وعطفا وعطاء ماديا .

وهذا الرجل الذي تفضل عليك بكل هذا الإفضال لا يريد منك نفعا ، لا الآن ، ولا في المستقبل ، بل هو مستغن عنك كل الغناء ، فقد وهبه الله ذرية صالحة تغنيه عنك . حتى إنك لا تستطيع نفعه بشيء ، حتى لو أردت ذلك ؛ لعظيم ثرائه وواسع جاهه وكثرة خدمه والمحيطين به .

ومع ذلك هو لا ينفك ينفعك نفع الوالدين لولدهما المدلّل ، لكن بحكمة وحسن تدبير.

وهذا الرجل بلغ من حفاوته بك أن علمك أحسن تعليم ، وأرسل إليك أفضل الأساتذة وأعظمهم حكمة ليعلموك من علومهم ومن حكمتهم ، لتكون قادرا على نفع نفسك ، والسمو بعقلك وفكرك إلى مصاف العلماء والمبدعين .

ثم هو من واسع جاهه وانتشار علاقاته وعظيم خبرته بمؤسسات الدولة والشركات الخاصة والعامة وبالمشاريع القائمة لم يبق لك طمعا بأن تكون أعرف منه بمصلحة نفسك ، فأنت أول من يعترف له بأفضل الجهات التي يمكنك أن تنجح فيها ، وأنت تعلم أنه لا يمكنك أن تنافسه في ذلك ؛ فمثله يطير الناس فرحا لو تمكنوا من أخذ مشورته في شؤون أعمالهم ؛ لعلمهم أن علمه وخبرته تقوده دائما إلى أفضل المتاح !

وهو مع عطائه هذا وبذله الكبير غير المنقطع يتصف بصفات جليلة جميلة في أخلاقه وخلقته :

- فهو كريم رحيم ، يتودد إلى الناس ، عادل لا يقبل الظلم منه ولا من أحد تحت إدارة

ممتلكاته .

- وهو حكيم ثاقب الرأي ، يكاد يرى الغيب من شدة ذكائه وعظيم فراسته ودقة تحليله للحوادث والشخصيات . حتى إنك لم تعرفه مرة جزم لك بشيء ، وتبين فيه غلطه . بل ربما اعترضت عليه مرات ، وزعمت أنك عرفت ما لم تعرف ، فإذا بهذا الرجل يتضح أنه هو الذي كان على صواب ، وكنت أنت المخطئ !
- وهو فوق هذا كله من أجمل الناس ، تكاد تشرق الشمس في وجهه نورا ، كأنما مسحه ملكٌ من الملائكة جمالا ، فإذا تكلم تساقط الكلام من فيه كأنه حبات اللؤلؤ بلاغة وفصاحة ودقة ، وإذا ابتسم أغضيتَ من هيبة الجمال ، وهيبة الجمال أعظم هيبةٍ ، أعظم من هيبة القوة والخوف والبطش .

لقد أسرك هذا الرجل بإحسانه ، أسرك بجماله ، أسرك بعلمه ، أسرك بحكمته ، أسرك بحبه لك وسعيه في صلاحك !

ثم بعد هذا تقول : لماذا أحبه ؟! وهو يُلزمني بطاعته ؟! ويريد مني الخضوع له ؟!

أنسيت أن حبه لك يوجب عليك مبادلته الحب ؟!

أنسيت أنه أعطاك حبه دون استحقاق لك منه حبا ولا التفاتا ؟! وإنما أعطاك حبه لكرمه وطيب طبعه .

أنسيت أنه بذل لك ما لا يبذله الأبوان ؟!

أنسيت أنك مأسور لعلمه وحكمته وسلطاته وجاهه ، إذا كنت تريد لنفسك الصلاح والسعادة ؟!

أنسيت أنه لا يأمرك لمصلحته ، وإنما يأمرك لمصلحتك ؟!

أنسيت أن معصيتك لا تضره في شيء ، وإنما تضرك أنت وحدك ؟!

لقد كان الأولى بك أن تقول : كيف لا أحبه ؟! كيف لا أفرح بطاعته ؟! كيف لا أُقبِّل قدميه إجلالا واعترافا بالفضل ، كما يخفض الأبناء جناح الذل من الرحمة لوالديهم ؟!

فإن صح هذا في مخلوق ، فكيف بالخالق الله عز وجل ؟!

فهو الذي جعلك شيئًا ، بعد أن كنتَ لا شيء { هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا } .

واختار لك أجمل صورة : { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ } ، { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } .

وكرّم جنسك على باقي المخلوقات { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا } .

وسخّر لك جميع خلقه : { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } .

حتى ملائكته (وهم جندٌ من جنده تعالى) : جعلهم الله تعالى حفظةً لك { لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ } ، { إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ } ، ويستغفرون لأهل الأرض { وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ } .

وجعلك أهلا للتعلُّم ، وعلّمك {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى} .

أنسيت أنه كان قادرا أن يجعلك غير مؤهل للتعلم ، { وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } ، فمن جعلك مؤهلا للسمع والبصر والتعقّل ؟!

أنسيتَ أن القدرة على الاعتراض هي جزء من قدرتك على الإبانة عن نفسك ، فمن وهبك هذه القدرة التي عُدت بها على خالقك ، ورجعتَ بها على واهبك إياها بالاعتراض {خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ } .

ثم إنه تعالى اختار من البشر أفضلهم وأذكاهم وأزكاهم لتعليم البشر ما يسعدهم ، وهم الرسل (عليهم الصلاة والسلام) : { إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ } ، { اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ } .

وجعل الله تعاليم شرائعه من أجل سعادتهم لا من أجل شقاوتهم ، ومن أجل التيسير عليهم من مشاق الحياة ، ومن أجل أن يخفف عنهم من أعباء الدنيا . قال تعالى { يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } ، { يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا } ، { مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } .

هل تعلم أن الله تعالى يصلي عليك حبا لك ، هو وملائكته { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} . ومعنى صلاته عليك لا مجرّد الرحمة والمغفرة (كما هو مشهور) ، على جلالة رحمته بك وغفرانه لخطاياك وشقاوتك ، ولا هي إضافة إلى ذلك ثناؤه عليك وإشاعة ذكرك الجميل (كما قيل أيضا في تفسيرها) ، وإنما هي ذلك كله انطلاقا من تمام الحب وكمال الرأفة ، حتى بلغ من حبه تعالى ورأفته بك أن كانت رحمته ومغفرته وثناؤه هي شأنه معك ؛ إذ «لما كان من شأن المصلى أن ينعطف في ركوعه وسجوده ، استعير لمن

ينعطف على غيره حنوّا عليه وتَـرَؤُّفًا. كعائد المريض في انعطافه عليه، والمرأة في حُنُـوِّها على ولدها ، ثم كثر حتى استُعمل في الرحمة والتَّـرَؤُّف» .

أنسيت أن طاعتك لا تنفعه ومعصيتك لا تضره : « يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئا . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكي شيئا» ، وقال تعالى عن الهدي الذي يُذبح ليأكل منه الفقراء والمحتاجون { لَنْ يَنَالَ اللهَّ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ } ، أي الذي يرفعه لكم وينفعكم عنده هو مقدار إخلاصكم لله تعالى عند تقديمكم لتلك الذبائح ، فلا تكون ذبائحكم ذبائحَ عُجْبٍ وتكبّر ، ولا رياء وسمعة ، ولا مَنٍّ وأذى .

وفى بعض الكتب المنزَّلة على بعض الأنبياء (عليهم السلام) : يا بني آدم ، ما خلقتُكم لأربحَ عليكم ، ولكن خلقتُكم لتربحوا عَلَـيَّ .

فمن لا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك ، والذي لا يمكنك أن تنال من هيبة سلطانه بعصيانك ؛ لأنك تعصيه بعلمه ، وبنعمه عليك ، وبتمكينه لك من ذلك ، ولو أراد منعك من معصيته ، لما قدرتَ على شيءٍ منها طرفة عين = ما الذي يجعله يغضب عليك إن عصيته ؟! لماذا يغضب ، وهو أعلى وأجلّ من أن تضره بمعصيتك ؟! لن يُفسِّر غضبَه عليك من معصيته مع عدم وصولك بشيء من الضرر إلى جنابه ؛ إلا إذا ما كان يغضب عليك لك ؛ لأنه يحبك ، ويريد سعادتك ، وفي عصيانه شقاوتك !! فهو لا يأمرك بطاعته لأجله هو ، وإنما لأجلك أنت . فإذا عصيته ، أضررت بنفسك ، وهو يحبك ، وما ترك لك عذرا في عصيانه ، ببلاغه شرعه على أحسن صور البلاغ .

ألا تحب المبدعين ؟! فكيف بمن أبدعهم !!

ألا تحب المتقنين ؟! فكيف بمن خلق هذا الكون بكل هذا الإتقان !!

ألا تحب الجميلين ؟! فكيف بمن خلق هذا الجمال ؟! فكيف بأجمل موجود (عز وجلّ) ؟! والحمد لله تعالى أن حديث «إن الله جميل يحب الجمال » حديث صحيح في صحيح مسلم ، وإلا لاتهمنا الجفاة بأننا إذا وصفنا الله تعالى بهذه الصفة أسأنا إلى هيبته !!

لا أشك أن صفة الجمال الإلهي وحدها لو استغرق فيها ابن آدم لكفته غرقا في حب الله ! بل نجاة وسعادة في هذا الحب !!

ألا تطيع الحكماء ؟! ألا تسلّم لمن تعلم أنه يعلم أضعاف ما تعلم ؟! فكيف بمن خلق علمك وكونك وعالمك الذي تتعلم منه ؟! { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} ، {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ، { يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } . ولا تعلم علما إلا بما أذن لك أن تتعلمه : { وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ } .

إن حبك الله وطاعتك إياه وخضوعك له مما يوجبه عليك حبه لك وإحسانه عليك وكمال صفاته جمالا وكمالا مطلقا ، وتوجبه حكمته وعلمه ، ويوجبه خلقه لك من العدم ، وأنك مملوك لربك ، ولكنك مملوك محبوبٌ لمالكك ، ولذلك ميزك بالعقل والتكليف الذي يجعلك أهلا للتكريم .

فكان الواجب لا أن تقول : لماذا أحبه ؟! بل أن تقول : كيف لا أحبه ؟!!

وكان الحق يلزمك لا أن تقول : كيف أحبه وهو يُلزمني بطاعته ؟! بل أن تقول : كيف لا ألتزم طاعته ، وهي طاعة لا ينتفع بها غيري ، ولا تضر معصيته سواي ؟!

وكان العقل سيرفض أن تقول : كيف يريد مني أن أحبه وهو يريد مني الخضوع له ؟! لأن خضوعك له حاصل في طاعتك ومعصيتك ، فما خرجت من خضوعك له في كلتا الحالتين : فلا أطعته إلا بإنعامه ، ولا عصيته إلا تحت تمكينه وسلطانه ، وبعد علمه وإذنه . كل الذي خرجتَ منه بالعصيان أن خرجتَ : بنكران الجميل ، وكفران الإفضال ، وسوء أخلاق المتنمّر على سيدك ، وغباء المتطاول على من بيده إهلاكك وإصلاح حالك !!

إن من لم يعلم لماذا يحب الله أهل بأن لا يعلم لماذا يحب أحدًا من خلق الله ، فما أحببتَ إلا بحبه تعالى ؟! أرأيت حبك والديك ، ألم يكن عطاؤهما ورحمتهما إلا جزءا من عطاء ربك ورحمته ؟! أريت جمال الحسناء الذي ذهبتَ في حبها كل مذهب ، هل هي إلا هبة جمال الجميل عز وجل وقطعة من إبداعه ؟! أوليس حبك لها نفسه نعمة من نعمه عليك ، فما لحبك وحبها ليكون في ملك الله إلا بعد إذنه تعالى ؟!

من لا يعرف لماذا يحب الله ؟! فهو أهل أن يكون مخلوق الكراهية بكل ظلماتها وبجميع وحشتها وبعصارة آلامها ، فلا تنتظر منه أن يحب إله المحبة !!

لماذا الإيمان بالرسل أصلا ؟

(ضرورة الإيمان بالرسل)

قويت في الآونة الأخيرة دعوات لا دينية، لا تقوم على الإلحاد وإنكار وجود الخالق، وإنما على إنكار الحاجة للأديان وللإيمان بالرسل، وادعاء أن الإيمان بوجود الخالق مع التزام حسن التعامل مع الخلق أمرٌ كافٍ للبشرية، ولا حاجة للإيمان بالرسل ولا لاتباع تعاليم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وفي هذا المقال سنناقش هذه الفكرة نقاشًا عقليًّا: فهل هناك ضرورةٌ عقليةٌ لوجود الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام؟ أم ليس هناك دلالة عقلية؟

فالمقال ليس عن إثبات صحة نبوة نبيّن معين، فهذا له مجال آخر، وإن وُجد في هذا المقال ما يمكن أن يكون دليلا عليه أيضًا. لكن المقصود من المقال هو إثبات حاجة البشرية لبعثة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، وحاجة البشرية لاتباع شريعة الله التي أوحى بها إليهم. وإثبات ذلك بأدلة العقل، وإن ورد ذكر بعض نصوص الوحي في هذا المقال، فليس للاستدلال بها على من كان ينكر مَصْدَريتها، وإنما لإثبات وجود هذه المعاني في وحي الله تعالى على نبينا صلى الله عليه وسلم.

وكان يجب أن يكون النقاش عقليًّا؛ لأننا نناقش من ينكر وجود الرسالات، فلا يرى أن هناك وحيًا من الله تعالى يلزمه تصديقه واتباعه.

أما من يُثبت وجود الرسالات، ومع ذلك ينكر وجوبَ اتِّباعها، فقد وقع في تناقض شديد وتكاذُبٍ واضح مع نفسه؛ لأنه إذا آمن بنبوة موسى أو عيسى أو محمد صلوات الله وسلامه عليهم، فيلزمه أن يصدقهم إذا أخبروه أن الله تعالى يأمرهم بفعل كذا أو ينهاهم عن كذا؛ وإلا فما معنى أن امْرَءًا يُصدِّق الرسولَ في كونه مبلِّغًا له عن خالقه عز وجل (وهو

معنى الإيمان به رسولا)، ثم إذا قال له هذا الرسول: هذا كلام الله يأمرك بالصلاة والزكاة والصوم، فيقول في الجواب على هذا البلاغ من الرسول: لست ملزَمًا بذلك!! فمثلُ هذا إما أنه بذلك قد كَذَّبَ بعد أن صدَّق، أو أنه ما كان قد صَدَّقَ أصلا!

ومن هنا نبدأ في مناقشة من ينكر وجود الرسالات، فأقول:

إنما تأتي أهمية الإيمان بالرسل وبضرورة اتباعهم بعد الإقرار بضرورة وجود خالق وبعد الإيمان به، لا قبلها.

ومن لم يكن ملحدًا، ولم يكن منكرًا لوجود خالق للكون، فإنه يجب عليه إثباتَ ضرورةِ بعثة الرسل، ويجب عليه أن يعترف بالافتقار التام لهدايتهم، وبأن إيمانه بوجود ربٍّ خالقٍ يُلزمُه أن يؤمن بالرُّسُل؛ وذلك لأسباب، سأذكرها بعد عدم الغفلة أبدًا عن أننا في هذا المقال إنما نناقش من ينكر وجود الرسالات، رغم إيمانه بوجود الخالق عز وجل، ولا نناقش الملحد المنكر للخالق عز وجل.

فما هي الأدلة العقلية على وجوب بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام:

الدليل الأول: العقل يدرك ضرورةً أن المخلوقَ مملوكٌ لخالقه، وهذه المملوكية للخالق هي العبودية، فالعبودية هي مملوكية العبد لمالكه وللمتصرِّفِ في شأنه.

إذن فكونُنا عِبادًا لله ضرورةٌ عقليةٌ، لا يستطيع العقلُ الانفكاكَ عنها.

وكوننا عبادًا لله هو حقيقتنا التي لا تتغيّر ولا تزول، ولن تتغير ولن تزول؛ لأن الخالق سيبقى خالقًا، والمخلوق سيبقى مخلوقًا.

ولذلك كانت هذه الحقيقة (حقيقة كوننا عبيدًا لله تعالى) لا يُمكن أن تُعانَد أبدًا، ولا أن تُنكر؛ لأنها حقيقة وجودنا أصلا. ومن عاندها أو استكبر في إنكارها فهو أسفه عقلا ممن يريد بكلامه وحِجاجه ولَجاجِه أن يُثبت لنا أنه لا يتكلّم!! فإنكار المخلوق لمخلوقيته

وعبوديته هو إنكارٌ لها بها، كإنكار الكلام بالكلام، بل هو أبعدُ سَفَـهًا وأشدُّ قُبحًا؛ لأن كلامنا جزءٌ يسيرٌ من حقيقة مخلوقيتنا وعبوديتنا!

ومادُمنا عِبادًا مخلوقين، ولا يمكننا أن نكون إلا كذلك، فيجب أن نعيش كما نحن، يجب أن نعيش مخلوقيَّتَنا وعبوديتنا لله رب العالمين.

والحق أن كل المخلوقات تعيش هذه العبودية، بلا تكليف ولا شعورٍ بها؛ لأن هذه العبودية هي حقيقتها (حقيقة وجودها)، وهي العبادة غير الطوعية، وهي التي ذكرها الله تعالى إذ يقول: {وَللهِّ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ}.

والإنسان في ذلك كباقي المخلوقات؛ لأنه مخلوقٌ لخالق، مربوبٌ لرب، كمثلها تمامًا؛ إلا في كونه متميّزًا عن بقية مخلوقاتِ عالَـمِ الشَّهادة: بالقدرة على الاختيار، وبالتفكير، وبالقدرة على تسخير كثير من المخلوقات وكثير من قوانين الكون لتحقيق أهدافه. وهذا التميّزُ الإنساني لا علاقة له باستحقاقه التمرّدَ على عبوديته، ولا يجعله غيرَ مخلوق، وإن كان يعطيه القدرة على الجحود والتمرّد، ويُمكّنه من الاستكبار والعناد! لأن هذا التميّز لا يُـخرجه عن كونه مخلوقا، ولا صار بإنكاره عبوديته (إن أنكرها) ليس عبدًا!!

إذن فالإنسان عبدٌ لله تعالى كباقي المخلوقات، أقرّ أو أنكر، أطاع مالكَه عز وجلّ أو عصاه!

ومن كان مخلوقا عبدا (بل الصحيح أن نقول: ومن كان عبدًا؛ لأنه مخلوق) فلا بدّ أن تكون سعادته وطُمأنينته متعلّقةً بطبيعته التي خُلق عليها، وهي العبودية لله تعالى وحده لا شريك له. كما لا يُمكن لأي مصنوع أن يُؤدِّي غيرَ وظيفته؛ إلا بقدرٍ من الإفساد يَتَقَدَّرُ بِحجْمِ ابْتِعادِه عن وظيفته. فكذلك الإنسان: لا يمكن أن يُؤدِّي غيرَ وظيفةِ عبوديتِه؛ إلا بقدرٍ من الإفساد يَتَقَدَّرُ بحجم ابتعادِه عن وظيفته!

وهنا نفهم معنى قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} فَهْمًا من فُهومها

الدقيقة؛ وهو: أن الله تعالى ما خلق الإنس والجن إلا ليمارسوا وظيفتهم التي هم مخلوقون بها.. ولها، لكي يَسْعَدُوا بذلك، فلا يَشْقَوْا بمخالفة طبيعتهم، ولكي لا يُفسِدوا بالخروج عن وظيفة حقيقتهم الوجودية. ولذلك نفهم العبادة بأنها مفروضة على الإنسان لإسعاده وتعويضه ما نقصه بالاختيار من عبوديته التي هي حقيقة وجوده، ولم تُفرض العبادة لمنفعة الرب عز وجل؛ إذ لا تنفعه عز وجل طاعةُ طائعٍ، ولا تضره معصية عاصٍ؛ كما قال تعالى في الحديث القدسي الصحيح: «يا عِبادِي! إِنّكُمْ لنْ تبْلُغُوا ضُرِّي، فتَضُرُّوني، ولَنْ تبْلُغُوا نفْعِي، فتَنْفَعُوني. يا عِبادِي! لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ، وإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ، كانُوا على أَتقَى قَلبِ رَجلٍ وَاحدٍ مِنْكمْ، ما زادَ ذلك في مُلْكِي شيئا. يا عبَادِي! لو أنَّ أَوَّلَكمْ وَآخِرَكمْ، وَإِنْسَكمْ وَجِنَّكمْ، كَانوا على أَفجَرِ قَلبِ رَجلٍ وَاحدٍ، ما نقَصَ ذلك من مُلْكِي شيئًا».

والحقيقة أن ميزة الإنسان في التفكير والاختيار كانت هي نفسها مشكلتَه (إن صح التعبير)! فبقية الكائنات المشاهَدةِ كلِّها سواه تُحَقِّقُ العبوديةَ دون مخالفةٍ لوظيفة العبودية، أما الإنسان الذي تميّز (كما سبق): بالقدرة على الاختيار، وبالتفكير، وبالقدرة على تسخير كثير من المخلوقات وكثير من قوانين الكون لتحقيق أهدافه= قد جعلته هذه الميزةُ قادرًا على الخروج عن وظيفته، قادرًا على مخالفة طبيعته، قادرًا على الخروج عن فطرته وإشقاءِ نفسه بذلك، وعلى إفسادِ ما أصلحه الله تعالى في خليقته.

وهذه الميزةُ المشكلةُ تُوجِبُ أن يُخَصَّ الإنسانُ بما يُصحِّحُ له تحقيق حقيقته، وما يعيده إلى عبوديته، كلما حَرَفه عنها سوءُ اختيارِه.

بل الإنسان في حاجة إلى استشعار العبودية بقدر ما أُعطي من حرية الاختيار، حتى لو لم ينحرف به سوء اختياره عن التوحيد لله تعالى؛ لأن حرية الاختيار كما كانت مؤهِّلةً للتكليف فهي (من وجهٍ آخر) انتقاصٌ للإنسان من تمام عبوديته التي تمّت في بقية المخلوقات المأخوذة برُمّتها في الطاعة والعبودية لسُنن الله تعالى الكونية وأحكامه القدريه. ولذلك كان الإنسان محتاجًا لاستشعار الخضوع الطوعي دون عامة المخلوقات؛ لكي

يُعوّضَ ما افتقده من تمام العبودية بسبب قُدرته على الاختيار.

وهذه الحاجة إلى استشعار العبودية لا تحصل إلا بالتزامٍ لأحكام وأعمالٍ لا يظهر للإنسان فيها مصلحة مادية حسية؛ لأنها لو كانت مصلحتها ماديةً حسيةً لكان سَعْيُ الإنسان إليها باعثُه هو أنها تحصيلُ منفعةٍ له، كباقي الأحياء غير المكلّفة والتي لا تملك القدرة على الاختيار والتفكير، فكل حي من الحيوانات يسعى لتحصيل منافعه وينفر مما يخشى ضرره. ولذلك فلن يجد الإنسانُ في سَعْيه لما له في مصلحةٌ ماديةٌ ظاهرةٌ حاجتَه الروحيَّةَ وغذاءه النفسي في لذّة العبودية التي كان يريد بها تحقيق حقيقته، ولذلك كان الإنسانُ مضطرًا إلى أوامر من خالقه، يفعلها ائتمارًا بأمر الله تعالى فقط، وهي العبادات المحضة، كالصلاة (بهيئةٍ محدّدة وشروط وأركان وواجبات وسُنن)، لكي يعيد إلى طبيعته المخلوقة المتشرّفة بالعبودية لله تعالى استشعارَ العبودية الذي افتقده بسبب حرية الاختيار! ولذلك كان الإنسانُ كلما غمرَ نفسه في تلك العبادات أكثرَ لذّة، وأعظمَ سعادة، وأشدَّ ارتياحًا، وأثبتَ طُمأنينة؛ لأنه بها يعيش طبيعتَه ويُحقِّقُ حقيقتَه.

واعتقادُ وَحْدانية الله في ربوبيته وألوهيته وكمال صفاته، والتوجُّهُ له تعالى وحده بالتعظيم والحب توجُّهَ عقلٍ وقلب أو توجُّهَ أفعالٍ ظاهرةٍ يختارها العبدُ لنفسه دون أمرٍ وتعليمٍ من الله تعالى، وبغير أن يعرف الإنسانُ كيفيةَ التوجّهِ الأحبِّ عند الله تعالى، وبغير استشعاره أنه يؤدي بتلك الشعائر واجباتِ العبد لمالكه الذي يمتلك قلبه وروحه وجسده = لن يُؤدّي شيءٌ من ذلك وحدَه ضرورةَ العبودية التي تمُثّلُ حقيقةَ الوجود الإنساني؛ لأن ذلك التوجه الاختياري من العبد لربه سيكون بمثابة التفضُّل بالاعتراف بالفضل، وبمثابة الشكر غير الواجب، وليس في شيءٍ من ذلك شيءٌ من معاني قيام العبد بفروض العبودية، ولا فيها المعنى الحقيقي للخضوع التام الذي يضطر الإنسان إليه نفسيًّا أكثر من اضطرارِه إلى الهواء والغذاء جسديًّا.

ولذلك كانت الفرائض عند الله تعالى أحبَّ إليه من النوافل، كما جاء في الحديث

القدسي الصحيح: « وما تقرّبَ إلى عبدي بشيءٍ أحب إلى مما افترضته عليه». مع أن العقل السطحي قد يتوهّم أن النوافلَ غيرَ الواجبة أَدلُّ على زيادة الإيمان وقوة التعظيم من الفرائض الواجبة؛ لأن من يقوم بالنوافل لا يقوم بها خشيةَ عقوبةٍ. لكن كانت الفرائض أحبَّ عند الله تعالى؛ لأن وجوبها والإلزامَ بها هو الذي يحُقق للإنسان عبوديته، ويعيد إليه ما يفقده من حقيقة عبوديته بسبب استشعاره القدرةَ على الاختيار، أو أنه يحفظ له ما يمكن أن يُنتقَصُ (قبل أن يُنتقَص) بسبب حرية التكليف؛ لأنه بتلك العبادات المفروضة سيكون (رُغم اختياره وحريته فيه) عبدًا مطيعًا، وما زال (رُغم حرية الاختيار) مخلوقا، مخلوقًا لا يعاند حقيقةَ وجوده، وهو أنه عبدٌ لخالقه، فَتَتَحقَّقُ له بذلك الشعورِ العميقِ طمأنينتُه وسعادتُه.

وبذلك كانت عبودية الإنسان واضطراره لها، مع تمَيُّزِه بالقدرة على الاختيار = أمرين يُوجبان أن يبعث الله نبيين ومرسلين، لكي يدلُّوا الناسَ على ممارسة وظيفة وجودهم، وللعودة بهم إلى نطاق فِطرتهم، بتحقيق عبوديتهم لله تعالى وحده لا شريك له.

ولذلك أخبر الله تعالى أنه لولا بعثة الرسل لكان لكثيرٍ من الناس على ربهم حجةٌ بعدم خضوعهم للوازم العبودية، فقال تعالى: {رُسُلاً مُبشِّرينَ ومُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يكونَ للناسِ على الله حُجّةٌ بعدَ الرُّسُلِ}.

ولذلك أيضًا أخبر الله تعالى أن العقوبة على الإفساد بالخروج عن العبودية لا تُستحقُّ بغير إرسال الرسل، فقال تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}، وقال عز وجل: {وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لهَا مُنْذِرُونَ}، أي: ما كنا مهلكيهم هلاكَ عقوبةٍ بالمخالفة لأمر الله؛ إلا بعد إرسال الرسل. وقال تعالى: {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ، أي: ما كان الله ليحاسبكم ويحكم عليكم بالضلال (بعد إذ هداكم للإيمان)؛ إلا بعد أن يُبيِّنَ لكم حدودَ ما شرع؛ لأن الله بكل شيء عليم، فهو عليم بما يهديكم ويصلحكم، وليس هو عز وجل كما نحن في عجزنا وافتقارنا إلى هداية خالقنا.

إذن فالحاجة للرسل هي حاجة توجبها حقيقة الإنسان: وهي عبوديته!

ولذلك لا يصح أن يُقال: فمن آمن بخالق واحد لا شريك له، ونزّهه عن النقائص، وأحبه وعظمه، واستشعر مراقبته واطلاعه، وعمل الخير، وكفّ عن الشر، وحرص على الإصلاح في الأرض وعدم الإفساد؛ فما حاجته للإيمان بالرسل؟

لأننا سنقول له: لو افترضنا أن الوصول إلى هذا كان في مقدور بعض الناس، فليس هو في مقدور كل الناس (كما سيأتي بيانه)؛ بدليل واقع البشرية البعيدة عن ذلك كل البعد على مر التاريخ البشري؛ إلا في حالات قليلة ونادرة يمكن أن تكون مجالا للنقاش حولها. ولكن لو افترضنا أن ذلك في مقدور كل الناس، فستبقى حاجة الإنسان الضرورية إلى استشعار الخضوع لربه بالائتمار لشريعته (كما سبق)، وهو الأمر الذي لا يتم بغير إرسال الرسل.

الدليل الثاني: أن تحديد محابّ الله تعالى وما يكرهه لا يمكن أن يستقلَّ العقلُ بإدراكه كله، وإذا أمكن بالعقل إدراك بعض محابِّ الله تعالى وبعض مكروهاته عز وجل، بما يتضح لنا فيها مِن المنافع الظاهرة، أو مِن المفاسد الكبيرة البيّنة؛ فإن هذا لا يعني أننا سنُدرك كل محابِّ الله تعالى ومكروهاته سبحانه.

بل هذا لا يخص الخالق عز وجل، فبعضُ محابِّ البشر ومبغوضاتهم لا تخضع لحكم العقل أصلا، فكيف بالخالق عز وجل؟!

وإذا كان الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضةً فما فوقها، فلن أستحي أن أضرب مثلا ما، ما دام ييسّر الفكرة ويوضح المقصود لأوسع مستهدَفين من الناس! ولذلك فإني أوضح هذه الفكرة بأن أقول: لو قال لك شخص: لا أحب شراب الليمون وأحب شراب التوت، لا يحق لك أن تعترض بعقلك في هذا الاختيار منه حبًّا وبغضًا، فضلا عن أن تدّعي القدرة العقلية على معرفة تلك المحابّ والمبغوضات قبل إخباره هو عن نفسه بذلك أو قبل قيام الدليل الذي يشير إلى شيءٍ من ذلك عنه. فلئن كنتَ عاجزًا عن إدراك كل ما يحبه عبدٌ مثلك، فكيف ستدرك كل ما يحبه المعبود؟!! وإذا كان العقل لا يحق له في بعض

الأحيان التدخّل في محاب المخلوق ومبغوضاته، فكيف بمحاب الخالق عز وجلّ ومبغوضاته؟!! وبعبارة سهلة: إذا كنتَ لا تستطيع أن تعرف ما في نفس مخلوق مثلك مما يحبه ويبغضه، فكيف تعرف ما في نفس الخالق سبحانه وتعالى؟!!

وبهذا كانت الصلوات (مثلا) على تلك الهيئة المخصوصة، وكان الفجر ركعتين، لا ثلاثة، والظهر أربعا لا غير.. وهكذا؛ ولا يحق للإنسان أن يعترض على ذلك بـ(لمَ؟!) ولا (كيف؟!). والأهم هنا (في هذا السياق) أن نعلم من ذلك: أن هذا العجز عن تفسير سبب اختيار الرب لهذه العبادات بهذه الصفات المخصوصة هو عجزٌ مقصود لصالح الإنسان العاجز عن التفسير، وهو مطلب إنساني أصلا! للتلذّذ بحقيقتنا الإنسانية، بممارسة العبودية لله تعالى طوعا، كما سبق في الدليل الأول.

ولذلك فإنه إذا كان للخالق عز وجل محابٌّ ومكروهاتٌ، وبعضها لا يمكن للعقل أن يتوصّل إليها؛ وإذا كان العبد لا تتحقق عبوديته إلا بعدم مواقعة مبغوضات ربه عز وجل ومساخط خالقه سبحانه = فلا بد للبشر من مبلِّغٍ لهم عن الله عز وجلّ يبيّن لهم أين هي تلك المحبوبات: فيأتوها، وأين هي تلك المسخوطات: فيجتنبوها.

وهذا هو مِصْداقُ قوله تعالى الذي سبق ذكره: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ}، أي: ما كان الله ليحاسبكم ويحكم عليكم بالضلال (بعد إذ هداكم للإيمان)؛ إلا بعد أن يُبيِّنَ لكم حدودَ ما شرع؛ لأن البيان هو شرط الحكم بالهداية والضلال، بل هو شرط تحقيق الحرية في الاختيار أيضًا! كما قال تعالى في الآية الأخرى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لَا انفِصَامَ لَهَا}، فعلاقة عدم الإكراه في الدين بتبيّن الرشد من الغي التي تُفسِّرُ سببَ تَوالي ذِكْرِ هذين الأمرين في الآية: هو أنه بغير تَبيُّنِ الرُّشْدِ من الغيّ لن يكون هناك خيارٌ حقيقي للإنسان؛ فمن لم يعرف إلا الغيَّ وحده، أو إلا الرشد وحده، أو لم يعرف فرقًا بين رشدٍ وغيٍّ فاختلطا عليه اختلاطا كاملا = سيكون مثلُ هذا مكرها، شاء أم

أبى؛ لأنه لن يكون له خيارٌ بين شيئين مختلفين أصلا، وينحصر اختياره في شيء واحد. ولا تتحقق حرية الإنسان الحقيقية، ولا قدرته الحقيقية على الاختيار؛ إلا بالتبيّن التام والتفريق الواضح بين الرشد والغي، ليختار اختيارًا حقيقيا بين رشد يعرفه كل المعرفة، أو غي يعرفه كل المعرفة.

ولذلك أيضًا جاء الثناء على كتاب الله تعالى بأنه بيانٌ وتفصيل لكل شيء يحتاجه الإنسان، فقال تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} ، وقال تعالى: {مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}. فمن أَوجُهِ الثناء على كتاب الله تعالى بذلك: أنه قد أجاب العبدَ المؤمنَ بخالقه عن السؤال المُلِحِّ الذي تقوله عبوديتُه ومَخْلُوقِيّتُه : يا ربّ! كيف أعرف ما تحبه وما لا تحبه؟ فإن عبوديتي تحب ما تحبه، وتُبغض ما تبغضه، وأحب يا ربّ (بما أعطيتني من قدرةٍ على الاختيار) أن آتي ما تحبَ، وأن أجتنب ما تبغض.

فلمثل هذه الهداية الضرورية للإنسان وجب الإيمان بضرورة بعثة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وتَبيّنَ الاضطرارُ البشريُّ إلى وجودهم.

الدليل الثالث: أن عظيم حكمة الخالق عز وجل التي لا يشك فيها من آمن بكونه الخالقَ، والتي يظهر واضحُ دلائلها في مخلوقاته: من بديع الصنع، وجمال التكوين، وتوازن الخلق، وانسجام القوانين، ودقة المقاييس، والتي تبدأ من أعظم المخلوقات من الأجرام السماوية، إلى أدق ما عرفناه من الوجود، إلى ما في أنفسنا من تفاصيل الخلق الإنساني = كل ذلك يُوجب على العاقل الذي أقرّ بوجود خالقٍ أن يُقرّ أيضًا بكونه خالقًا حكيمًا بالغَ الحكمة تعالى وجلّ سلطانُه.

فإذا خصّنا الحكيمُ سبحانه دون بقيةِ المشاهَدِ من مخلوقاته بالتفكير والقدرة على الاختيار، وهما أعظم ما يميز الإنسان عن كل المخلوقات، بل هي الميزة التي قدّمته عليها

وسلّطته عليها، فجعلته قادرا على تسخيرها والاستفادة منها = فهل يمكن أن يكون هذا الإنسانُ مخصوصا من خالقه بهذه الخاصية الكبرى دون بقية الخلق كلهم دون هدف أو غاية؟! هل يمكن أن يكون مطلوبا منه أن يعيش ويفنى كبقية الموجودات دون أي اختلاف؟! هل يمكن أن يكون الفرق بينه وبين الخلق الذي لا قدرة للتفكير المبدِع لديه ولا قدرة للاختيار الحرّ إلا أنه يُفكّر ويختار؟! فتكون الميزةُ هي نفسُها هدفَ الميزة! مع أن الشيء الواحد لا يكون هو الغايةَ والوسيلةَ ولا يكون هو السهمَ والـمَرْمَىٰ معًا، ولذلك لا يمكن أن تكون الحكمةُ من تَمَيُّزِ الإنسان بالتفكير وبالقدرة على الاختيار هي أن يكون متميّزًا بالتفكير وبالقدرة على الاختيار!! كما لا يمكن أن يكون متميزًا بذلك بغير هدفٍ للتميّز!! لأن ذلك يناقض كل المناقضة أدنى درجات الحكمة!!

ولذلك كان الإنسان منذ وُجد (ولن يزال) يسأل: لماذا أنا موجود؟! ماذا يريد مني الخالق؟! لأنه يعلم أنه الوحيد (دونما يشاهده من بقية الموجودات) الذي يجب عليه أن يسأل هذا السؤال، بما اختُصَّ به من قدرةٍ على التفكير والاختيار.

ولذلك كان يكفي لإيقاظ الإنسان من غفلته عن هذا السؤال المصيري أن يُذكَّر به فقط، وهو تذكيرٌ يأخذُ بمجامع قلب الإنسان (كل إنسان)، ويطرد عنه كل دواعي الغفلة والنسيان، ويَـحْطِمُ في نفسه كل صوادّه عنه من استكبارٍ وعناد! خاصةً إذا جاء هذا السؤال في كلام الخالق الحكيم سبحانه نفسه، وبكلامه الرباني الآسِر: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}.

نعم.. فليس من معنى لتخصيص الإنسان بخلقه بهذه المميزات؛ إلا أن يكون عبثًا، يتنزّه عنه الخالق الحكيم؛ أو أن يكون مطلوبًا منه القيام بوظيفة تختلف عن وظيفة بقية الموجودات، تناسب هذه الوظيفةُ تلك الميزة، وتناسب حقيقة مخلوقيته وعبوديته، ليعود من تلك الميزة إلى مشابهة بقية المخلوقات التي فارقها بها، أي: ليعود إلى عبوديته، لكن باختياره هو، لا مكرَهًا كغيره من المخلوقات التي لا تملك الاختيار.

إذن فالإنسان إما أنه قد خُلق عبثًا، وإما أنه قد خُلق لغاية. والحكمة توجب أن يكون مخلوقًا لغاية، وحكمة الله توجب علينا أن نؤمن بأنها يجب أن تكون غايةً حكيمةً.. كلَّ الحكمة.

فما هي هذه الغاية؟!

كيف أطمئن إلى معرفتها؟!

كيف أعرف أني اخترت الخيار الصحيح رغم اختلاف البشر الاختلاف الكبير؟!

إن هذا السؤال المصيري لا يمكن أن يكون جوابه ظنيًّا، ولا يمكن أن يُترك الناسُ دون يقينٍ منه؛ لأن هذا سيجعلهم بلا جواب؛ لأن الأمر الذي يستوجب اليقينَ، لا يمكن أبدًا أن تجيب عليه الظنونُ. كمن يوشك على الهلاك، في بيداء لا نهاية لها، ولا يعرف شيئًا عن سبيل النجاة، فإنه قد يسعى خلف أي ظنٍّ بالنجاة، وقد يتمسّك بأي سببٍ يظنه سببَ هدايةٍ، لكنه سيبقى في دوامة الجزع، ولن يطمئن لأي ظنٍّ من تلك الظنون التي تلوح له، ولن يجد في أيِّ حبلٍ منها مُسْتَمْسَكَ يقينٍ يتوثّقُ به، حتى ينجو، أو يهلك. ولذلك لن يطمئن الإنسانُ إلا بجوابٍ صريحٍ ومباشِرٍ من الخالق الحكيم نفسِه عز وجلّ، يقول له: خلقتك لكذا، وأريد منك كذا، ومصيرك هو كذا؛ لأنه بغير ذلك لن يجد الإنسانُ جوابا يقينيًّا، وإذا لم يجد جوابًا يقينيا فإنه لن يجد جوابا؛ فكل جواب غير يقينيّ في محلّ اليقين فهو وهمٌ، أو هو والوهم سواء؛ لانعدام هدفه، وهو أن يُحَقِّقَ اليقينَ وطمأنينته. وإذا فقدَ الإنسانُ الجواب اليقيني عن سبب وجوده بتميّزه الإنساني، فسيكون وجودُه بتميّزه ذاك عبثًا، ولا يُمكن أن يَصْدُرَ شيءٌ من ذلك عن حِكْمةِ الخالقِ الحكيمِ سبحانه.

ولذلك لزم عقلاً أن يرسل الله تعالى الرسل عليهم الصلاة والسلام.

الدليل الرابع: أن الإنسان عاجزٌ عن معرفة كل ما فيه منفعته الدنيوية، مهما تَصوّرَ أنه قد عرف! وهذا لا يخفى على عاقل، ممن لم يُعْمِه الغرورُ العلميُّ والغرور الحضاريُّ

المعاصر.

ومع ذلك فلا بأس أن أُذكّر ببعض الدلائل اليقينية على ذلك:

أولاً: هل الإنسان في تقدمه العلمي قبل مائة سنة فقط كان عالمًا بكل ما يُصلحه مما يعلمه الآن؟ لا شك أننا ننظر للبشرية قبل مائة سنة فقط أنها كانت في غاية التخلّف عن إدراك منافعها، وننظر إليها أنها اغترت بكثير من معارفها البشرية حينئذ، وأنها أصدرت أحكامًا تسمح وتمنع، ووضعت نظريات تُرغّب وتحذّر، وسنّت قوانين في شتى صنوف المعرفة والأنظمة تدّعي أنها تتبع الأصلح.. ثم نحن اليوم، وبعد نحو مائة سنة فقط: تسخر معارفُنا من بعضها، وتُبطل تجربتُنا البشريةُ مزاعمَها! هذا وليس لنا إلا مائة سنة فقط من عمر البشرية الطويل!!

فلو افترضنا أننا بلغنا قمة التطور الإنساني في الفكر والعلم والأخلاق، لو افترضنا أننا أصبحنا بذلك قادرين أن نعرف كل ما ينفعنا في الحاضر والمستقبل، لو افترضنا كل هذا الغرور الأحمق = فمن أين للبشرية أن تهتدي لما ينفعها قبل عشرات الألوف من السنين، وإلى ما قبل مائة سنة فقط من عمرها؟! وكيف يمكن أن يدع الله تعالى البشرية بلا هدايةٍ ولا إرشادٍ ألوفَ الأجيال؟!

ومن جهةٍ أخرى: لو افترضنا أننا قد بلغنا قمة التطور فعلا (كما سبق)، فإن سنة الوجود تدلّ على أن بلوغ القمة سيكون هو بدايةَ الهبوط؛ فمن سيهدي البشرية في فترات هبوطها الفكري أو العلمي أو الأخلاقي؟!

فإن كانت البشرية ستزداد تطورًا، فمعنى ذلك: أنه سيأتي اليوم الذي تنظر فيه أجيالُ المستقبل إلينا على أننا جيلٌ بشريٌّ متخلّف، وأننا كنا محتاجين لهداية وإرشاد، وأنه ليس لدينا من المعارف والتجارب ما يؤهلنا لمعرفة كل ما ينفعنا وما يحمينا من كل يضرنا.

وهكذا يتضح أن البشرية لن تصل إلى الاستغناء عن هداية ترشدها إلى ما فيه منفعتها، مهما تطورت وتقدمت في العلم والفكر والأخلاق.

ثانيًا: واقع البشرية في اختلافها الكبير حول كثير من المنافع، والتي لا تقف عند حدود الأطماع فيما لدى الآخرين من مصالح، والتي تدعو للاعتداء على ثروات الآخرين وعلى مُقَدّراتهم، بل تتجاوز ذلك إلى اختلاف البشرية في التفريق بين ما هو منفعةٌ في أصله وما هو مضرة، وإلى ما هو مقبول وما هو مرذول. وهذا يدل على العجز الحقيقي لدى البشرية عن أن تكون هي مصدر حكمٍ واحتكامٍ في معرفة كل المنافع والمضار.

حتى العلم والتجربة العلمية: كم من مرة ادعوا بالعلم أن الشيء الفلاني مفيد، وتَصْدُرُ بذلك قوانينُ تُشرّعُه، ثم بعد ذلك (ربما بسنوات معدودة) يخرج علينا العلم الحديث بنقض ما توصّل إليه سابقا، وتُعاود القوانينُ صدورَها مرة أخرى، وباسم العلم أيضًا: في تحريمه.

حتى الأمور الظاهرة في الشذوذ وفي المناقضة للفطرة البشرية تجد في فترات من حياة البشرية من يدافع عنها، كالشذوذ الجنسي، والذي هو خلاف الفطرية البشرية، وخلاف التكوين الجسدي للذكور والإناث، والذي يشكل خطرا على الوجود البشري. ومع ذلك فقد وُجد في العصور الغابرة قوم لوط، استباحوا هذه الفاحشة المخالفة للفطرة والتكوين البشري، كما قال تعالى عنهم: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ}، وقال تعالى حاكيًا خطاب نبيهم لوط (عليه السلام) لهم: {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ}. واليوم نجد دعمًا عالميًا فاضحًا لهذه الفاحشة، وتتسابق كثيرٌ من السياسات في دعمها ومنع تجريمها، بحجة حماية الحريات الشخصية!

ولن أذكر في هذا السياق: تَفشِّي العُري والتّفسّخ والعلاقات المحرمة، التي لا تبني أُسْرة، ولا توفّر البيئة الصالحة لتنشئة الأبناء = فهذه الأمور قد بلغت البشريةُ من الانحطاط في شأنها: أن أصبحت أمورًا تقبل النقاش في قبولها أو رفضها، ويُسمَح لدعاتها بالظهور على أنه رأي في مقابل الرأي الرافض، والذي فُطرت الإنسانية عليه في تكوين الأُسَر وفي

تحديد طبيعة العلاقات المقبولة بين الذكور والإناث في عامة حضارات البشرية وباختلاف أديانها وعلى امتداد عصورها!

وهذا كله يدل على أن البشرية قد ترتقي عِلْميًّا، قد ترتقي في التِّقْنِيّة والصناعات = لكنها (في المقابل) قد تهوي أخلاقيا. وأنها قد ترتقي أخلاقيا أيضًا في جانبٍ أخلاقي، في حين أنها تهوي هويًّا سحيقًا في جانبٍ أخلاقيٍّ آخر. مما يؤكّد ضعفها وجهلها، وحاجتها للهداية الربانية.

إذن فهذا الاختلاف الشديد في تحديد المنافع والمضار: يكفي لبيان عجز البشرية عن أن تكون مؤهلة للاستقلال بمعرفتها.

ثالثًا: ما زال العلم يكتشف كل يوم جديدًا، كل يوم يتضح له منفعة أشياء ومضرة أشياء. فكيف يكون الإنسان مستغنيًا عن خبر الخالق في بيان ما ينفعه وما يضره؟! ولذلك قال تعالى في بيان حاجة الخلق إلى هداية الخالق: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}.

وفي مثال لذلك: نتحدث عن الخمر:

فلقد كانت كثير من الحضارات البشرية تشرب الخمر، ومازالت، وامتدحتها كثير من الأعمال الأدبية (شعرًا ونثرًا)، والأمم التي تشربها يدّعي فيها كثيرون أن لها فوائد، ما بين مطلقٍ القول بفائدتها، وما بين مقيِّدٍ شربها بالاعتدال فيه، مع أن الشرب باعتدال تكليفٌ بما لا يُستطاع غالبا؛ لأنه تكليفٌ لمن فَقَدَ القدرة على التحكم بتصرفه!

والمنفعة الجزئية للخمر جاءت صريحة في القرآن الكريم، في قوله تعالى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا}، ولكن الإسلام حرمها تحريمًا مطلقا؛ لأن ضررها أكبر من منفعتها؛ ولأن منفعتها (القليلة في جانب مضرتها) يمكن تحصيلها من غيرها.

ثم اليوم تخرج علينا الاكتشافات العلمية والدراسات الموثَّقة تؤكد ضرر الخمر على

الصحة وعلى الحياة الاجتماعية وعلى زيادة تعريض الإنسان للمخاطر القاتلة.

وتجدون في الموقع الرسمي لـ(منظمة الصحة العالمية) عنوانا يخص أخطار الخمور، يقولون في ديباجته، وتحت عنوان: (الكحول): «الوقائع الرئيسية:

- يتسبّب تعاطي الكحول على نحو ضار في وقوع ٢,٥ مليون حالة وفاة كل عام.

- يقضي ٣٢٠٠٠٠ شاب من الفئة العمرية ١٥-٢٩ سنة نحبهم كل عام لأسباب لها علاقة بالكحول، ممّا يمثّل ٩٪ من مجموع الوفيات السنوية التي تُسجّل بين تلك الفئة.

- يحتل الكحول المرتبة الثالثة في العالم ضمن أهمّ عوامل الخطر المرتبطة بعبء المرض؛ ويحتل المرتبة الأولى في هذا الصدد في إقليمي غرب المحيط الهادئ والأمريكتين والمرتبة الثانية في أوروبا.

- هناك علاقة بين الكحول وبين كثير من المشاكل الاجتماعية والتنموية، بما في ذلك العنف وإهمال الأطفال وإيذائهم والتغيّب عن العمل». وهذا رابط الموضوع:

http://www.who.int/mediacentre/factsheets/fs349/ar/

وتحذر منظمة الصحة العالمية من تواطؤ الصندوق العالمي مع عملاق المشروبات الكحولية وتتحدث عن تضارب واضح للمصالح في ذلك..

http://www.who.int/bulletin/volumes/90/1/11-091413/ar/

وتؤكد ذلك أيضًا تحت عنوان: ينبغي على الصندوق العالمي التصدي لتضارب المصالح.

http://www.who.int/bulletin/volumes/90/1/11-098442/ar/

وفي عنوان آخر: منظمة الصحة العالمية تواصل الدعوة إلى (سينما بلا تدخين أو مسكرات)

http://www.emro.who.int/ar/press-releases/2006-arabic/2012-01-05-12-47-57.html

وتنشر منظمة الصحة العالمية تقريرا مرعبا عن الخمر التي تقتل ٦ أشخاص كل دقيقة ،

كتب عنه موقع قناة (العربية) التقرير الذي جاء فيه : « منذ قرأت العنوان المكون من رقم و٩ كلمات، فتك الخمر - على أنواعه - بحياة شخص في العالم ، على أقل تقدير . أما عندما تنتهي من قراءة الموضوع كله في ٥ دقائق مثلا ، فترحم إذا أردت على ٣٠ لفظوا أنفاسهم الأخيرة أثناءها ، لأن (المشروب الحرام) يفتك بنسمة بشرية حية كل ١٠ ثوان ، وفي ٢٠١٢ وحده سفك دماء ٣ ملايين و٣٠٠ ألف إنسان .

هذه المعلومات، وغيرها الكثير، وردت أمس الاثنين في تقرير يمكنك مراجعة المزيد من تفاصيله في الموقع الرسمي لمنظمة الصحة العالمية، وفيه تأكيد منها لعدد من قضوا بأمراض سبّبها احتساء الخمور، ومعها رقم آخر مرعب: المحتسون بين سكان العالم البالغ عددهم ٧ مليارات و٢٠٠ مليون، هم ١٦٪ تقريباً، أي أكثر من مليار و١٥٠ مليونا، ممن بعضهم مرشح للسقوط صريعا تحت عجلات السائل المحرّم» .

http://www.alarabiya.net/ar/last-page/2014/05/13/%D8%AA%D9%82%D8%B1%D9%8A%D8%B1-%D9%85%D8%B1%D8%B9%D8%A8-%D8%B9%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AE%D9%85%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%8A%D8%AA%D9%82%D8%AA%D9%84-10-%D8%A3%D8%B4%D8%AE%D8%A7%D8%B5-%D9%83%D9%84-%D8%AB%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A9.html

وفي خبر نشرته CNN ، يقول عنوانه : « ثمانون ألف أمريكي يموتون سنويًّا نتيجة الكحول» : وقالوا في الخبر : « ورأى الباحثون في الدراسة التي نشرت في مجلة "الإدمان" أن الكحول تعتبر سبب الوفاة من خلال فحص شهادات الوفاة، على مدى فترة سنتين في ١٦ دولة أمريكية لاتينية. وشكل الرجال ٨٤ في المائة من الوفيات المرتبطة بتناول الكحول» .

http://arabic.cnn.com/2014/scitech/1/16/scitech-studies-link-alcohol-to-early-death-americas/index.html

وفي خبر مصور آخر نشرته **BBC** ، بعنوان : دراسة تشير إلى علاقة بين تناول الكحول وسرطان الجلد ، مما قالوا فيه : « ذكرت دراسة نشرت في الجريدة البريطانية لطب الأمراض الجلدية : أن هناك ارتباطا بين كثرة تناول المشروبات الكحولية وزيادة احتمالات الإصابة بسرطان الجلد» .

http://www.bbc.co.uk/arabic/multimedia/2014/01/140130_health_alcohol_cancer.shtml

وفي خبر تنشره صحيفة الحياة: روسيا تحارب إدمان الكحول بتقييد المبيعات.

http://alhayat.com/Details/468474

وفي خبر آخر في **BBC** يقول الخبر : «أشارت دراسة أمريكية حديثة إلى أن شرب الكحوليات بكثرة في مرحلة منتصف العمر يضاعف خطر فقدان الذاكرة في وقت لاحق.

وخلصت الدراسة إلى أن الرجال والنساء في الخمسينات والستينات من العمر – الذين كانوا يشربون الكثير من الكحوليات في مرحلة ما من حياتهم – أكثر عرضة للإصابة بمشاكل في الذاكرة، وذلك في غضون فترة تصل إلى عقدين.

وتعد الدراسة – التي نشرت في الدورية الأمريكية للطب النفسي للمسنّين – بمثابة دليل جديد يضاف إلى أدلة متزايدة على أن الإفراط في شرب الكحوليات يمكن أن يضعف الوظائف الذهنية للذاكرة لاحقا» .

http://www.bbc.co.uk/arabic/scienceandtech/2014/07/140730_middle_age_drinking_alcohol.shtml

وفي ويكيبيديا (الموسوعة الحرة) جاء النص التالي تحت مادة (مشروبات كحولية)، وتحت عنوان: (استهلاك الكحول والصحة): «ولكن إحدى الدراسات الأسترالية: أظهرت أنه حتى شرب الكحول باعتدال، بما يساوي كأسين من الكحول يوميا، يزيد من خطر الإصابة بسرطان الثدي والأمعاء والحلق والفم بنسبة كبيرة.

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%B4%D8%B1%D9%88%D8%A8%D8%A7%D8%AA_%D9%

فلو أن البشرية اهتدت بهداية الله، وقبلت تحريم الخمر، واستبدلت بمنافعها منها منافعَها الموجودة في غيرها = لكانت قد نجت من هذا التخبّط والجهل والغرور الذي يرفض هداية الخالق عز وجلّ ، والذي مازالت تعيش فيه ، رغم التقدم العلمي الكبير !

وهذا يبين أن البشرية تحتاج في منافع الدنيا ومصالحها إلى هداية الله تعالى، وأن ما تتوصل إليه من رُقيٍّ علمي لا يمكن أن يجعلها مستغنية عن هداية الله تعالى.

وإذا كان الله تعالى قد خصّنا بالقدرة على التفكير وبالقدرة على الاختيار، وهو يعلم تعالى أننا قد نختار الفساد على الصلاح والضار على النافع جهلًا وغفلةً وظلمًا، واقتضت حكمته عز وجل ودقّة صنعته وصفاتُ كماله أن لا يحب الفساد، لزم من ذلك أن يُنزّل علينا خالقُنا قانونا يحمينا من جهلنا، وأن يبيّن لنا ما به يحفظنا من أن نفسد في الأرض بعد إصلاحها {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا}.

وإذا كان ما خصنا الله تعالى به من القدرة على التفكير وبالقدرة على الاختيار دليلَ تكريم؛ لأنها ميزة بها أمكننا أن نُسخِّرَ كثيرا من المخلوقات لصالحنا {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}، وقال تعالى: {عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} = لزم من ذلك أن لا يتركنا ربُّنا هملا، نتردّى بعد هذا التكريم في مهاوي الجهل، دون تعليمٍ، تعليمٍ يتبعه اختيارٌ حُرٌّ للسمو أو السقوط. فنكريمُنا لا يجتمع وإهمالَنا، كما كان إعطاؤنا حريةَ الاختيار لا يتفق وعدمَ تمكّننا من الاختيار أصلا، بعدم تمييزنا الحق عن الباطل والنفع من الضُّرّ.

ولذلك وجب عقلا: أن نؤمن بحاجتنا الماسة وافتقارنا الكامل إلى بعثة الرُّسُل (عليهم الصلاة والسلام)، وهذا الإيمان يُوجب علينا الإيمان بوجوب بعثتهم عليهم السلام؛ لأن هذا هو مقتضى إيماننا بوجود خالق عادل حكيم سبحانه، لا يمكن أن يدعنا مع افتقارنا الشديد إلى هدايته دون أن يمنّ علينا بها.

فإن قيل: فهذا الغرب والشرق قد وصل إلى تحقيق منافع الدنيا، كما لم تصل إليه البشرية من قبل، دون هداية الوحي، ودون استرشاد بهداية النبوة؛ فكيف تدّعون الحاجة للنبوات حتى في تحصيل منافع الدنيا؟!

والجـــواب:

أولاً: في الاعتراض تعميمٌ قدّمنا بيانَ بطلانه، وهو ادعاء أن الحضارة المعاصرة قد وصلت حد تحقيق المنافع الدنيوية كلها؛ فماذا نقول عما سبق ضرب بعض أمثلته (وسيأتي غيرها)، مما يبين عجز البشرية إلى اليوم وتخبطَها في بعض ما يتعلق بمنافع الدنيا، وأنها مازالت حتى اليوم محتاجة لهداية الوحي في تحديد بعض ما يخفى عليها منها.

وإذا كانت البشرية كل يوم تكتشف جديدا يُقنعها بمنفعة شيءٍ لم تكن تُـحقِّقُ منفعتَه، وبمضرة آخر لم تكن تشعر بمضرته، فكيف لها أن تدعي استغناءها عن خبر من لا تخفى عليه خافية في دلالتها على منافعها وتحذيرها من مضارها، هو ربها عز وجل؟!

ثانيًا: في الاعتراض إغفالٌ لاختلاف البشر الواقع إلى اليوم في تحديد المنافع والمضار، وفي حاجتهم لمصدرٍ يصحح لهم التصورات، ويكون حَكَمًا فيما اختلفوا فيه، ويكون سببًا لرفع النزاع بتسليمهم له جميعًا، وهذا لن يكون إلا وحيَ الخالق تعالى على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام؛ لأنه المصدر الوحيد الذي يمكن أن يُسلّم له البشر كلهم ممن آمن بالخالق. كما قال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ}. ولذلك ذمَّ الله عز وجل من يرفض تحكيم الله تعالى ورسوله، فقال تعالى: {وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ}، إلى أن قال سبحانه، مادحا المؤمنين بخلاف ذلك: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

وفي مثال لهذا الاختلاف البشري: لقد كانت بعض الحضارات البشرية والديانات

الوضعية تجيز نكاح المحارم أو بعضهن (كالمجوسية والفراعنة في مصر وبعض الهندوس)، ولما جاءت الديانات السماوية بتحريم ذلك كان ذلك أمرا مرفوضا عند أهل تلك الحضارات البشرية، وما زال عليه بعض البشر حتى اليوم. ثم إن العلم الحديث تَحدّثَ عن أضرار زواج الأقارب صحيًّا، وأنه مما يزيد من ظهور الأمراض الوراثية، كما أصبح مما لا شك فيه خطر هذا الزواج اجتماعيا: في انهيار معنى الأسرة، وفي تحوّلها إلى مصدر تنفير بعد أن كانت موئل أُلفة وطمأنينة وركون. فمثل هذا الأمر الدنيوي الذي تكاد تتفق عليه الشرائعُ السماوية، وما زال بعض البشر ينازع فيه، رغم ظهور ضرره = لو كان هناك تسليمٌ بهداية الأنبياء عند تلك الأمم التي رفضت هدايتهم، لنجت من هذا الضرر، ولما خالفت منافعها، ولما استمرّت تمارس هذا الإضرار، حتى اليوم، رغم التقدم العلمي والحضاري.

ثالثًا: من قال إن الحضارة المعاصرة لم تهتد بتاتًا بهدي الأنبياء عليهم الصلاة السلام؟! إن هُدى الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم في وجدان البشرية بين مستبطَنٍ ومستَظهرٍ، تهتدي به. ومهما حاول البشر ادعاء الوصول للحق والفضيلة بفكرهم، فلا يمكنهم إنكار إصلاح تعاليم الأنبياء الباقية إلى اليوم، رغم ما انتاب بعضها من تحريف وتبديل؛ إلا تعاليم الرسول والنبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم المصونة من التبديل والتغيير.

هل ننسى الغرب النصراني، والذي مهما أقصى تَسلُّطَ الكنيسة، ومهما أفسدت الكنيسةُ من تعاليم المسيح عليه السلام، فما زالت تتضمن تعاليمُه هدايةً يسترشد بها علماء الغرب وقادته، وتتكرّر منها عباراتٌ في الكتاب المقدس عندهم حتى في كتب العلم وفي عبارات كبار العلماء الكونيين (وانظر مثلا كتاب: الله يتجلى في عصر العلم، لنخبة من الكتاب الأمريكيين)، وفي خُطب القادة والسياسيين ؟! فليس صحيحا أن حضارة الغرب لم تهتد بشيء من هداية الوحي (المحرّف بعضه)، كيف وهو إرثٌ يؤثّر في تصوراتهم وفي طريقة تفكيرهم، حتى على العلماني منهم، بل حتى على الملحد!!

هل ننسى أثر حضارة الإسلام في الحضارة المعاصرة، وأنها كانت (في أجحف تصوراتها وأبخسِها حقَّها) همزةَ وصلٍ بين حضاراتٍ قديمة (في اليونان وفارس والهند) والحضارةِ المعاصرة، مما يجعل هذه الهمزة الموصولة مهموزةً بالإسلام مغموسةً في تعاليمه متطهّرةً بوحي خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم. فما وصل للغرب من حضارات الأمم السابقة عن طريق المسلمين، وما أضافه علماء المسلمين إليها، سيكون لهداية الإسلام فيه أثره الواضح.

إذن لا يمكن ادعاء أن البشرية قد وصلت إلى ما وصلت إليه من رقي دنيوي كانت فيه مقطوعةً عن الاستفادة من دعوة الأنبياء الإصلاحية ولا من تعاليمهم الإرشادية.

رابعًا: يكون هذا الاعتراض له وجاهة لو كان في تعاليم الأنبياء المختومة بتعاليم الإسلام الناسخ لما قبله شيءٌ يقف حجر عثرة في وجه تحقيق المنافع الدنيوية، أو كان فيها ما يعارضها ويمنع منها. لأن مجرّد وصولنا اليوم إلى أعلى ما وصل البشر إليه من تحقيق المنافع الدنيوية (لو سلمنا به)، فإنه لا يدل على استغناء البشرية عن هداية الوحي من جهتين:

- الأولى: من كان سيهدي البشرية قبل هذا التطور؟! وهل يصح أن تُترك البشرية بلا هدايةٍ.. ألوفَ السنوات والأجيال، انتظارًا للعصر الراهن؟! إذن كانت البشرية كلها وعلى مَرِّ عصورها محتاجةً لهداية الأنبياء قبل عصر الاغترار هذا، في أقل تقدير!!

- الثانية: أننا (كما سبق) ما زلنا نكتشف أخطاءنا في تحصيل بعض منافع الدنيا، مما سبق وحي الأنبياء إليه، كما في تحريم الخمر، وغيرها.

ومؤخرًا: كان علماء المسلمين يتحدثون عن أضرار الرأسمالية والسوق الحر بلا أي ضوابط تراعي المصلحة العامة، كتحريم الربا. وقبلها كانوا يتحدثون عن أضرار التسلّط على الملكيات الخاصة، وعن أضرار مركزية التصرف في المال، فيما سُمّي بالاشتراكية في صورتها الأصلية التي سقط على إثرها الاتحاد السوفيتي معلنا فشله. وكان الاشتراكيون

ينفون تلك الأضرار، وينافحون عن الاشتراكية كل المنافحة، حتى هوت هويا يثير السخرية في موطنها الأصلي وفي وسط قلعة فكرتها!! وكذلك الرأسمالية: فقد كنا إذا تحدثنا عن أضرارها وعن أضرار الربا، واجهَنا المعترضون بالغرب، وها هو يمثل أقوى الاقتصاديات، مع كونه قلعة الرأسمالية وحامي حمى الربا. وفي عام ٢٠٠٨م، وعندما هزت العالم أزمة اقتصادية هائلة، تعالت الصرخات من اقتصاديي العالم وأكبر القيادات السياسية بالدعوة إلى (تقييد) الرأس المالية المجنونة (كما عبر بعضهم)، لتكون بهذا التقييد ليست رأسمالية أصلاً! بل بلغ الأمر أن دعت صحيفة الفاتيكان الرسمية إلى التزام (أخلاقيات) الاقتصاد الإسلامي، فقالت: « أنه يتوجب على البنوك الغربية أن تنظر إلى قواعد المالية الإسلامية بتمعن، من أجل أن تستعيد الثقة وسط عملائها»، في خضم هذه الأزمة العالمية، بحسب ما نقله مراسل وكالة بلومبرج لورينزو توتارو.

وقالت صحيفة الفاتيكان الرسمية المعروفة باسم "أوسيرفاتور رومانو": « قد تقوم التعليمات الأخلاقية، التي ترتكز عليها المالية الإسلامية، بتقريب البنوك إلى عملائها بشكل أكثر من ذي قبل، فضلاً على أن هذه المبادئ قد تجعل هذه البنوك تتحلى بالروح الحقيقية المفترض وجودها بين كل مؤسسة تقدم خدمات مالية».

وقد نشرت جريدة الاقتصادية صورة هذا المقال من مجلة الفاتيكان:

http://www.aleqt.com/2009/03/07/article_202253.html

وانظر بعضًا من تصريحات الاقتصاديين العالميين والقادة السياسيين حول جنون الرأسمالية وحول سقوط أهم مبادئها (الحرية المطلقة) في المواقع التالية:

http://islamtoday.net/albasheer/artshow-102-14488.htm

http://www.[illegible].com/index.php/[illegible]/article/12999.html

فهل هذه البشرية مستغنية عن هداية الأنبياء، حتى في تحصيل منافع الدنيا؟! وهي بهذا العجز والتخبّط!!

خامسًا: أن أكثر منافع الدنيا هي أمور ظاهرة، لا تحتاج فعلا إلى توجيه رباني يُعرّفنا بها؛ لأن العقل الذي وهبه لنا الخالق عز وجل قادرٌ على تمييز أكثر المنافع وأكثر المضار. ولذلك لم تتدخّل الشرائع السماوية في كل تفاصيل الأمور الدنيوية، ولا تحدّثت عن كل المنافع الدنيوية والمضارّ الدنيوية بالتعداد والتفصيل.

وهذا الإسلام، مع كونه أكثر الشرائع السماوية تفصيلا في أحكام أمور الدنيا: من معاملات مالية وأحوال شخصية وقضائية؛ إلا أنه سار في بيانه لها على أن الأصل فيها الإباحة، وأنها خاضعة للمصالح والمفاسد؛ إلا ما تترتب عليه مفاسد غالبة، فإنه يحرمه. فوضع الإسلامُ الأُطُرَ العامةَ التي تضبط أمور الدنيا، لكي لا تخرج عن حدود الحق والعدل والإصلاح، وترك عامة التفاصيل لاختيار البشر، فهم أعلم بأمور دنياهم؛ بعد التزامِ شرع الله، ضمن تلك الخطوط العريضة التي حدّدتها الشريعة، وضمن بعض الأحكام التفصيلية القليلة التي تخرج عن ذلك الأصل العام، هو أن الأصل في أمور الدنيا الإباحة.

ولذلك فإنك لن تجد إبداعا بشريا في تحصيل منافع الدنيا، أو في البعد عن المضار؛ إلا وشريعة الله التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام، ممثّلةً في شريعة النبي صلى الله عليه وسلم = قد حثت على تحصيلها بنص خاص أو عام، وحثت على اتباع سبيل تحصيلها بنص خاص أو عام. ولا تجد شيئا في تعاليم الإسلام يمنع من تحصيل منفعة حقيقية، ولا يحث أو يبيح إيقاعَ النفس الإنسانية فيما يضرها.

وأما ما أخفقت فيه الحضارة المعاصرة (غربية كانت أو شرقية) في تحصيل منافعه والنجاة من مضاره، وما جَرّته على الإنسانية من الأخطار = فستجد أن بعض تعاليم الإسلام الخاصة (فضلا عن العامة) قد منعت منه، ولو كان الغرب والشرق غيرُ المسلم مهتديًا بهداية النبيين (عليهم الصلاة والسلام) لما وقع في تلك الأخطاء في تحصيله لمنافع الدنيا.

فليس في وصول الحضارة الحديثة لما وصلت إليه من منافع الدنيا مما يجعلها مستغنية عن هداية الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، بل مازالوا مفتقرين إلى هداية ربهم عز

وجل فيها احتياجا حقيقيًّا .

الدليل الخامس: دلائل النبوة الباقية إلى اليوم، والتي تُثبت صحة النبوة عقلا. فهي أدلة تُخضعُ العقول وتضطرّها لقبولها؛ لأن منها خوارق للعادات لا يمكن أن يصل إليها الإنسان إلا بتمكين من الله تعالى، مما يؤكد صحة صلة الأنبياء بربهم عز وجل، ويُصَدِّقُ قولَ المرسلين أنهم مُرسَلون من قِبَل الله تعالى .

وهي أدلة لئن لم تقطع بعضُ آحادها بصحة النبوة، فيقطع مجموعُها بها عند كل عاقل مريدٍ للحق غير مكابر ولا معاند.

وأتنزّل في قوة دلالة هذه الدلائل هذا التنزّل؛ لأنه يكفي لإثباتها يقينيًّا، ويكفي لدفع وسواس التشكيك الناجم عن خلل فكري ينتشر بين البشر، بسبب دعاوى النسبية المطلقة؛ كعدم التفريق بين الاعتراض الذي يُنزل الدليل عن اليقينية إلى الظنية والوسواسِ الذي لا يؤثر في اليقين، وكعدم التفريق بين درجات اليقين، وتَطَلُّب أعلى درجات اليقين فيما لا يمكن فيها ذلك؛ تحقيقًا لحكمة الابتلاء!

ودلائل النبوة كثيرة جدًا، وفيها مصنفات كثيرة:

- منها كثرة أتباع الأنبياء من البشر، فهم عامة أهل الأرض، حتى اليوم. والاستخفاف بإيمان هؤلاء جميعا جهل وغرور؛ لأن اتفاقًا على مثل هذا الاتفاق، على حقيقة الإيمان بالأنبياء، وهو أمر يخرج عن المعتاد، ولا علاقة له بالمعرفة المادية، لا يمكن أن يتواطأ هذا العدد الجم من البشر عليه.

أما وجود عدد كبير من البشر لا يؤمن بالرسالات، فلا يطعن في صحة هذا الدليل؛ لأن من لم تبلغه الرسالة، ولا قامت عليه حجتها، وكان كأصحاب الفترة = فهذا ينبغي أن يكون عدم إيمانه جهلا، والجهل لا يكون حجة على من علم.

كما أن واقع هذه الأمم لا تخلو أيضًا من زعماء روحانيين (كما يسمونهم):

* مثل بوذا عند البوذيين، الذي يعتقدون أنه ابن الله والمخلّص للبشرية من آلامها، ويحكون قصصًا عن علاقته بالملائكة. وللبوذية تعاليم وكتب وخُطَب تُنسب إلى بوذا.

* ومثل كِرِيشْنا عند الهندوس، وكقانون (مانو) عند هم أيضًا.

* ومثل (فيدا) وهو كتاب مقدس عند أتباع الديانة الفيدية (الموجودة في الهند) ، ويعتقدون أنه وحي إلهي .

ومثل (مهاويرا) في الديانة الجينية الموجودة في الهند ، والذي له كتاب مقدس عند أتباعه ، وعند بعض أتباعه كتاب يسمونه (تتوارت سوترا) يزعمون أنه المصدر الوحيد للتعاليم .

* ومثل كونفوشيوس في الديانة الكونفوشيوسية (ديانة أهل الصين)، فقد جعلوا منه مصدرًا للقوانين والتعاليم، رغم أنه لم يدّع النبوة، إلا أن أتباعه يعتقدون أنه مفوَّضٌ من قبل السماء لإرشادهم .

* ومثل زرادشت عند المجوس، والذي يدعون نبوته، وله كتاب ينسبونه للوحي الإلهي هو (الأبستاق) وهو تعريب للاسم الفارسي (أفستا) ، وعليه تقوم ديانة المجوس . حتى لقد وقع خلافُ ضعيفٌ بين علماء المسلمين في اعتبار المجوس أهلَ كتابٍ .

فحتى هذه الأمم اضطرت إلى اختراع صلة بينها وبين الإله الخالق، لكي تغطّي حاجتها الاضطرارية إلى بعثة الرسل!

هذا إن لم تكن أصول هذه الديانات بعثاتٍ لأنبياء حقًّا؛ أو بقايا تعاليم أنبياء سابقين، لكنها تحرّفت تماما، حتى انتهت صلتُها بالوحي، وخرج أتباعها عن أن يكونوا معدودين في أهل الكتاب.

- ومنها بشارات الأنبياء (عليهم السلام) وأخبارهم الغيبية بظهور بعضهم، كالبشارات بالنبي صلى الله عليه وسلم في كتب أهل الكتاب والباقية إلى اليوم. ومما يزيل شبهة

اصطناعها:

* أنها في كتب من لا يؤمنون بالنبي صلى الله عليه وسلم.

* وأنها موجودة في نسخ مخطوطة أثرية مكتوبٌ بعضُها قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم أصلا.

- ومنها خوارق العادات المادية التي جرت على يدي الأنبياء (عليهم السلام)، والتي تناقلها أتباعهم. فهي لئن لم تَـثْبُت آحادُها على وجه اليقين، فمجموعُها يُفيد اليقينَ بوقوعها، خاصة دلائل نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لما تتميز من نقلها في الكتب بالأسانيد المتصلة التي تتوفر فيها أعلى درجات التثبت والاحتياط التي تُفيد غلبةَ الظن في آحادها، على أقل تقدير؛ فكيف بمجموع تلك الأخبار.

- ومنها القرآن الكريم: فهو معجزة قائمة بيننا:

(١) في بلاغته وفصاحته:

* لمن كان يتذوّق الكلام، ويعرف عجائب دلائله، ويفهم كيفية قُدرة بلاغة الكلام على إثبات خروجه عن وُسْع البشر، ويستطيع أن يدرك الفرق الكبير بين الكلام المعجِز وغيره.

* ولمن تأمّل دلالة عجز عرب الجاهلية عن التحدّي بالقرآن، ولجوئهم في عداوتهم للنبي صلى الله عليه وسلم ولدعوة الإسلام إلى تكبّدهم عناء القتال، وما يستلزمه القتالُ من بذل الـمُهج وفلذات الأكباد من الأولاد إلى مصارع الحروب، وإخراجِ مكنوز الأموال ومحبوب النفائس في سبيل تلك العداوة. ولو كانوا قادرين على معارضة القرآن بمثله، فضلا عن أبلغ منه = لكان هذا أيسر عليهم وأهون كُلفة، ولا يمكن أن يستعيضوا عنه بتلك الأخطار والأكدار وبذل الأنفس والذرية والأموال.

وقد تكلم العلماء منذ القدم عن هذه الدلالة، وصنفوا فيها مؤلفات مفردة، قديما وحديثًا. وأجابوا عن كثير من الاعتراضات التي يمكن أن تنقدح في الأذهان، حتى إني

لأعجب من أبناء هذه الأمة، حينما يعترضون بشكوك قد فنّدها العلماء منذ قرون تفنيدًا عقليًّا محكمًا، وما زالوا يُردّدونها، في زمن يدّعون فيه الثقافة وسعة الاطلاع!

(٢) وفي دلائل فحصه الذاتية.

(٣) وفي إخباره بالمغيبات، منه المسمى بالإعجاز العلمي.

(٤) وفي محاسن تشريعاته، وعدالة أحكامه، وتحقيقها للمصالح البشرية، وتحصيلها المنافعَ لها.

وفي ذلك كله مؤلفات كثيرة، ذكرت بعضها في كتابي (المحكمات).

- وسيرة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) وقصة حياتهم، وأجلها سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، مما يشهد بصدقه: في كمال بشري معجز، لا يمكن أن يتحقق بغير عون من الخالق عز وجلّ.

كل هذه الدلائل العقلية وغيرها تقطع بصحة النبوة، وإذا صحت النبوة فلا يمكن أن يدعي التصديق بها من يزعم أنه غير ملزم بتعاليمها، مادام النبي الذي قد صدّقه يبلغه عن الخالق عز وجل بفروضٍ وأحكامٍ وبأخبارِ غيبٍ، كما سبق في أول حديثنا.

وبذلك يتضح أن الإيمان بالرسل حقيقة عقلية، ومعتقدٌ يُوجبه العقل، ويجده مضطرًّا إليه؛ لأن أدلته العقلية أدلة يقينية، توجب الإقرار بوجود النبوات، وبوجوب الالتزام بشريعة الله التي جاء بها الرسل عليهم الصلاة والسلام، وخاتمتها هي رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وشريعته صلى الله عليه وسلم هي الشريعة الناسخة لكل شرائع الأمم السابقة.

لماذا كان الأنبياء من الشرق الأوسط فقط ؟!

نقل لي أحد المتابعين رسالة جاءته ، يقول صاحبها:

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وحياكم الله تعالى

بداية أظن انكم لاحظتم المد اللاديني غير الطبيعي فى الآونة الأخيرة مما كان يشكل أرضية لنقاشات واسعة حول امور عدة أجمل لكم أهمها في التالى:

١- دلائل النبوة: اثبات وجود الله ووحدانيته اثباتا عقليا بالمقام الاول اما مناقشة اللادينى فلا تتأتى الا بثبوت صحة الرسالة المحمدية ثبوتا جازما وللاسف لا امتلك الا ترجيحات وامور بين الاخذ والرد والغريب انى دارس سابق للاسلاميات - حوالى عشر سنوات- ولكنى لم انتبه لخطورة هذا الأمر وكذا الكثيرين.

٢- إشكال الشرق أوسطية : وجود الرسالات والنبين والكتب فى منطقة الحجاز ومصر والهلال الخصيب فقط وباقى العالم خال الا من ظنون لا نملك عليها أدلة ومن خلال بحثى استطعت ضم ايران ترجيحا بناءا على ظنى فى اصل الزرادشتية اما الهند والصين واوربا والعالم الجديد بقاراته الثلاث فلا على الرغم من ان بعض تلك الحضارات احتفظت بتاريخها بما فيها التاريخ الدينى مما يكون اشكالا مفاده ان مسئلة الوسطاء بين الله والانسن مجرد استمزاجات شرق اوسطية.

٣- عدم وجود معجزة للنبى مطلقا بنص الكتاب - بم كان يقنع اهل بيداء الحجاز؟

٤- وجود بعض التعارضات العلمية بين الكتاب والعلم الحديث ففى المسائل الفلكية على سبيل المثال مسئلة الشهب الراجمة للشياطين وخلق الارض وتقديرها فى اربعة ايام مقابل يومين للسماوات وسبق خلق الارض على السماء ولم اجد احدا يأول هذه الامور تأويلا مقنعا .

٥- عدم وجود دلائل تاريخية على شخصية ابراهيم والنبى وشخصيات كثر.

٦- وجود بعض الامور فى الكتاب مبهمة كالاحرف المقطعة وبعضها فى القصص - فقبضت قبضة من اثر الرسول فنبذتها - والقينا على كرسيه جسدا ثم اناب مم اضطر المفسرين الى اللجأ لاهل الكتاب للبيان وفتح بابا للخرافات والاسرائيليات
.

٧- هل باقى اهل العالم معذبون وهم لا يعرفون العربية ولم يقرأوا الكتاب ناهيك من افتقارنا للدلائل القاطعة.

أعلم أنى أكثرت عليكم وإن كان غيضا من فيض وآمل أن تساهموا برأيكم أو باحالات على كتب وأبحاث تساهم وتقارب فى حل هاتيك الإشكالات.

ونتمنى لكم التوفيق من الله

وانتظر اجابتكم» .

هذه رسالته بنصها ، وبأخطائها اللغوية والإملائية.

فقلت في جوابه:

أولا: هذا مثال من أمثلة الفكر الذي يشيع على ألسنة بعض الكتاب والمتحدثين، وهو فكر يقوم على ما يمكن أن نسميه بـ(الغرور الثقافي) ؛ لأنه لا يقوم على أسس علمية ، وإنما على فهم سطحي وقراءة عجلى للعلوم ، ومن خلاله تتكون عند الواحد منهم بعض الأفكار التي لا تثبت علمياً ، ثم يريد بها أن يُقوِّض مناهج علمية قامت عليها علوم إسلامية ، وبها يريد أن يهدم صروح العلم .

ثانيا : بخصوص دلائل النبوة : هناك دلائل نبوة يقينية ظاهرة لا شك في يقينيتها ، تقوم ببعضها الحجة على العباد ، فكيف بها مجتمعة ! لكنها مع يقينيتها لا تصل حد يقين الحس القوي المباشر، أو حدّ نتائج العمل العقلي الصِّرف (كواحد + واحد = اثنان)

ونقصت يقينية دلائل النبوة عن أعلى درجات اليقين (الحسية والعقلية الصرفة) لحكمة

الابتلاء ولعدم رفع التكليف بالإيمان، ولولا ذلك لانكشفت الحُجُب ، ولرأينا الله تعالى في الدنيا ، ولزال فضلُ الإيمان بالغيب .

ومن مشكلات الإنسان المعاصر، ومع غلبة الماديات عليه، أنه أصبح يريد يقينا من نمط يقينيات الحس (المشاهدة والسماع واللمس والذوق والشم)، ويظن كل ما لا يبلغ هذه الدرجة فهو ليس يقينا! وكل ما أورد إليه من الاحتمال والتشكيك فهو مما ينزله عن درجة اليقين ، وهذا غير صحيح؛ فاليقين مراتب بعضها فوق بعض، كما أن التشكيك في اليقين لا يُصيره ظنا أو شكا بمجرد التشكيك ، فبهذا وصل أصحاب الشك للشك في الحس والعقل وكل شيء.

ثالثا: من أمثلة الغرور الثقافي السؤال عن إشكالية الرسالات وعدم وجودها في أطراف العالم كالصين وأوربا والعالم الجديد!

فالجواب عن ذلك يبدأ بالتذكير أننا نجهل الكثير عن حضارات كثيرة : كانت .. فبادت ، ولم يبق لنا منها إلا آثار قليلة، نحاول أن نتلمس فيها شيئا يسيرا من حياة تلك الأمم ! فهذه الآثار ليست سجلا يوميا كاملا يؤرخ لتلك الحضارات ، ولا هي أرشيف يقيد كل صادر ووارد ، حتى يصح إنكار ما لم تحفظه تلك الآثار !! إنما تلك الآثار الباقية هي بقية يسيرة جدا من ذلك الماضي البعيد والغيب الغابر ، ولولا ظروف استثنائية أحاطت بها لفُقدت مع ما فُقد من بقايا تلك الأمم . فكيف يصح في العقول أن نجعل نُتفًا من هنا وهناك ، وبضع كلمات متقاطعة لا تتجاوز العشرة من ديوان يتكون من عشرات المجلدات = دليلا على نفي ما لم يرد فيها ، ونستند إليها في ادعاء العلم بما لم تثبته ولم تنفه ؟!!

إن محاولة نفي ما لم تُثبته تلك الآثارُ المكتشفةُ ولم تنفه هو نفيٌ لا يجيزه لي الاكتشافُ نفسه ؛ إلا بما أسميه بالغرور الثقافي .

وبذلك يتبين أن وجود أنبياء ورسل في كل أمم الأرض لا يمكن أن يكون في عدم اكتشافنا له في آثار الأمم الغابرة ما ينفيه ؛ لأن تلك الآثار ما هي إلا قطرة من بحر الحقيقة

الغائبة لذلك الغيب السحيق في القدم . فهي آثارٌ تنفع في الإثبات ، ولكنها لا تكاد تنفع في النفي .

وهذا يذكرني بدعوى أحدهم أن ما ورد في السنة من أن آدم عليه السلام كان طوله ستين ذراعا غير صحيح ، مستدلا في رده لهذا الحديث بعدم اكتشاف حفريات تثبت وجود بشر بهذه الأطوال ! مع أن الحفريات تثبت الوجود ، ولكنها لا يمكن أن تثبت العدم . فها هي نفس الحجة التي تُستخدم الآن في إنكار الدين والقرآن ، بخلل احتجاجها نفسه !

ثم هل ينسى صاحب هذا التشكيك: أن الهند والصين وأوربا كانت دولا قائمة في زمن الرسالات، ولشعوبها علاقات بشعوب الشرق الأوسط، فلو كانت فكرة الوسطاء (الأنبياء والرسل عليهم السلام) فكرة شرق أوسطية مكذوبة، كان من السهل أن يسمي أولئك الأنبياء الأدعياء والمتنبؤون الكذابون في كتبهم المزورة التي نسبوها لله تعالى أنبياء صينيين ورسلا أوربيين أو هنودا، لكي يصححوا دعاواهم في وجوب النبوة للبشرية ! فلماذا لم يخبرنا القرآن الكريم عن نبي صيني أو هندي أو أوروبي ؟! لن يكون السبب هو عدم العلم بوجود تلك الشعوب، ولا لعدم وجود علاقات تجارية وسياسية بها؟ فلو كان القرآن الكريم مفترى كان يجب أن يذكر شيئا عن أنبياء المشرق والمغرب ، لكي يُصحِّحَ دعواه : في أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير!!

لكن القرآن الكريم بعد أن أقام الدليل اليقيني على صحة النبوة ببلاغته وأسلوبه وتشريعه وأخباره وغير ذلك من دلائل ربانيته ، وبعد أن أخبرنا بعدد كبير من الأنبياء ، قال تعالى { رُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ }، ليبين لنا أن الأنبياء والرسل المذكورين في القرآن ليسوا سوى نماذج مذكورة للتعلم من سيرهم وللعظة والاقتداء، ولم يُذكروا فيه بغرض الحصر والاستيعاب. وهو بذلك قد ترك للعاقل أن يدرك أن الشعوب التي لم يذكر فيها نبيا لا يكون عدم ذكره دليلا على عدم وجوده ، وإنما تُرك

ذكرها لعدم حاجة الإيمان (صحته وكماله) إلى ذكرها.

فلما لم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم نبيا في الصين والهند وأوروبا ، مع عدم وجود ما يمنع من ذكره ، ومع العلم بالصين والهند وأوروبا واحتكاك العرب بهم ، ومع تقريره أنه { وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ } = فهذا يدل على أنه إنما ترك ذكره لأنه لم يوح إليه فيهم شيء . ولو كان صلى الله عليه وسلم يقول القرآن من عند نفسه : مفترى (وحاشاه صلى الله عليه وسلم) لذكر أنبياء في كل بقاع العالم ، وادعاهم في غابر الأزمان ، لكي لا تكذبه الشعوب التي زعم أنه قد بُعث فيها أنبياء ، ولكان ذلك أدعى (فيما يظن المفتري) لقبول دعواه ولتصديقها.

ثم هذا الاعتراض مفترَضٌ في حالة تصديق الأمم لأنبيائها ورسلها ، بمعنى أن الاعتراض يفترض أن الأمم كانت قد آمنت وصدقت بالنبي ، ولذلك أوجب هذا الافتراضُ أن تُحفظ أخبارُه وأن تُنقل سيرته ، ولو عند تلك الشعوب فقط وفي تراثها خاصة . لكن هذا الاعتراض غفل عن ثلاث حالات تنقض الاعتراض من أساسه :

الحالة الأولى : حالة النبي الذي يكذبه قومه ، فلا يؤمن له إلا قليل ، فهؤلاء المؤمنون القليلون يندثرون بسرعة ، ويُعادَون ، حتى يتفانى ذِكرُهم .

الحالة الثانية : حالةَ النبي الذي لا يؤمن له أحد ، والذي قد يقتله قومه من شدة تكذيبه ومعاداته ومعاداة دعوته.

وهما حالتان واردتان عقلا، ومحتملتان احتمالا كبيرا في سير المصلحين أو زعماء الفكر التغييري في المجتمعات الإنسانية ، فضلا عن أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا عن وجود أنبياء يأتون يوم القيامة وليس معهم إلا الرجل والرجلان ، ويأتي بعضهم يوم القيامة وليس معه أحد ، بل قال الله تعالى عن أطول رسالة عرفتها البشرية ، وهي رسالة نوح عليه السلام { وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } .

ففي حالة تكذيب النبي يكون الأصلُ هو أن لا تحُفظ أخباره ، فالعادة أن الأمم تحفظ

سير المعظمين عندها ، لا سير المفترين في نظرها والمهزومين المحكوم عليهم بالإعدام !

الحالة الثالثة : حالة الإقصاء الديني وعدم التسامح ، ففي هذه الحالة يكون هناك حرص كبير لدى الشعوب التي تمارس ذلك الإقصاء على إفناء آثار ورموز المخالفين لها في الدين بالحرق والهدم وشتى صنوف الإتلاف والمحو ، كما يشهد بذلك الواقع المعاش والتاريخ القريب والبعيد . وبذلك نفهم قوة احتمال بعثة أنبياء وقيام رسالات في كل بقاع الأرض ، ولكن شدة عداوة المخالفين لهم هي التي محت آثارهم وأعدمت بقاياهم من على وجه الأرض ، وأخفت كل ما يدل عليهم أو يرمز لهم .

وفي حالة أن الأصل في العالم القديم وجود هذا الإقصاء وشدة العداوة للمخالف في الدين ، فإن ادعاء استنطاق الآثار الباقية لنفي وجود ديانات سماوية في الصين والهند وأوربا سيكون كاستنطاق حجر لا يتكلم ، ولن أقول إنه كاستنطاق أخرس فقَدَ القدرة على الكلام .

وبذلك يتبيّن أنه من المحتمل أن يكون هناك أنبياء ورسل في الصين والهند وأوربا ، ونجحت دعوتهم ، وكثر أتباعهم ، وربما أقاموا دولة ؛ لكن أفنت أتباعهم بعد ذلك الحروب ، واستولت الديانات الكفرية على مدنهم ودولهم ، فأفنوها حرقا ومحوا من الوجود .

المهم أن نعلم : بأن ورود هذا الاحتمالات الثلاث ، واجتماعَها مع عامل الزمنِ شديدِ القسوة على الآثار الصخرية (من المباني والنقوش) ، فضلا عن الآثار الفكرية = يجعل إغفالهَا خللا علميا وفكريا ، فهو إغفال لا يقبله عقل سليم ، ولا قلبُ الباحث الصادق عن الحق.

ثم هذا الافتراض نشأ عن جهل بحقيقة لا يدفعها الإسلام : وهي وجود أهل فترة ، أي وجود أمة من الناس لا تقوم عليها الحجة الرسالية ، وإن قامت على أسلافهم . كما حصل للعرب قبيل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ

وَنَذِيرٌ } ، وكما قال تعالى {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } ، وقال تعالى { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ } ، وقال تعالى { وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ } ، وقد أضافت السنة إلى القرآن الكريم تفاصيل عن حكم هؤلاء من أهل الفترة ، وعن حالهم يوم القيامة مع عدم قيام الحجة الرسالية عليهم . والمقصود : أن من الأمم ما لم تقم عليها حجة الأنبياء ، ولهؤلاء حكمهم الخاص عند الله تعالى . فلا يصح الاعتراض بوجود هذه الأمم على إنكار النبوات ، ما دامت النبوات قد ذكرتهم وأجابت في بيان حالهم !

أو بعبارة أخرى : النبوات نفسها قد ذكرت وجود أمم لم تبلغها رسالة نبي ، وتحدثت عن مصيرها ، فكيف يُستدرك على النبوات وتُكذَّب بوجود ما أثبتت هي وجوده ؟! بل بأي منطق بعد ذلك تُنكَر النبوات بعد جوابها عن حجة المنكِر لها قبل ذِكْرِه هو حجتَه ؟!!

وهذه الأمم التي ما جاءها نذير ربما قامت عليها الحجة بنبي من غيرهم أو بأحد حملة دعوته ، كما حصل للأوربيين في دخولهم في النصرانية بدعوة من أحد الحواريين ، وهو بطرس ، المدفون في الفاتيكان (حسب المعتقد النصراني) ، وكما حصل لبعض العرب قبل الإسلام من اتباعهم لليهودية أو النصرانية.

ومن قامت عليه الحجة الرسالية بغير الأنبياء والرسل فليس محتاجا لبعثة نبي أو رسول.

فما أَدْرَىٰ هذا المعترِض أن تلك الأمم ما بلغتها دعوةُ بعض الرسل الشرق أوسطيين (حسب تعبير السائل) ، وأن دعوة هؤلاء المبلِّغين عن الرسل من أتباعهم والمؤمنين بهم قد كفت وأغنت في إقامة الحجة عليهم .

وبذلك يتبين أن إنكار وجود أنبياء في الأمم التي لم تخبرنا الآثار ولا كتب الأنبياء عن أنبيائهم لا يخلو حالها عن أحد ثلاثة أمور :

١- إما أنه قد خلا فيها نذير ، ولكن ضاع خبره واندثرت آثاره كما اندثرت كثير من الحضارات على وجه الأرض.

٢- وإما أنه ما جاءها نذير منهم ، لكن قامت عليهم الحجة بنبي من غيرهم ، كما سبق بيانه.

٣- وإما أنه ما قامت عليهم الحجة الرسالية ، وهم من أهل الفترة.

فلا يكون في هذه الاحتمالات ما يجيز الاعتراض على النبوات بمثل تلك الفرضية التي لا تقوم على دليل ، بل الأدلة تنقضها .

رابعا : أما قول السائل: ((عدم وجود معجزة للنبى مطلقا بنص الكتاب - بم كان يقنع أهل بيداء الحجاز))، فهو اعتناقٌ صريح لما يخالف القرآن – الذي احتكم له السائل- ، وإنكارٌ للقرآن قبل أن يكون إنكاراً لغيره !!

- فالقرآن نفسه أعظم المعجزات ، وله خضع العرب ، وبه تحداهم الله تعالى ، وعجزوا عن هذا التحدي ، وبه صدقوا النبي صلى الله عليه وسلم.

وكيف يمكن لهذا السائل أن ينفي معجزة القرآن وهو يقرأ القرآن الذي يكشف عن عظمته الدالة على ربانية مصدره؟!

ألم يتفكر السائل: لو كان النبي صلى الله عليه وسلم بلا دلائل نبوة ، كيف تمَّ له أن أقنع أهل بيداء الحجاز وأهل الشام والعراق والشام ومصر والعالم حتى دخلوا في دين الله أفواجا ؟!

- ومن معجزات النبي صلى الله عليه وسلم التي ذكرها القرآن إخباره بالمغيبات التي أخبر بأن مصداقها سيقع في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، أو أخبر عنها وتبين صدقها في حياته صلى الله عليه وسلم:

من مثل قوله تعالى { غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ للهِّ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤)

بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} .

ومن مثل الحكم على بعض الكفار بالخلود في النار وبالموت على الكفر : كأبي لهب وامرأته والوليد بن المغيرة ، فما كذَّبَ الواقعُ خبرَ القرآن ، بل صدّقه ، ولا استطاع هؤلاء تكذيبَ خبر القرآن ، ولو بالنفاق وادعاء الإيمان!!

ومعجزات النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة جدا ، جمعها العلماء في كتب ، هي كتب دلائل النبوة . وهي بمجموعها تقطع بوقوع معجزات حسية كثيرة للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يمكن أن تكون كلها مفتراة ، لكثرتها البالغة ، ولتعدد طرقها التعدد المفيد لليقين ، والذي بلغ حد التواتر المعنوي.

خامسا : قوله : «وجود بعض التعارضات العلمية بين الكتاب والعلم الحديث ، ففى المسائل الفلكية على سبيل المثال مسألة الشهب الراجمة للشياطين وخلق الارض وتقديرها في أربعة ايام مقابل يومين للسماوات وسبق خلق الارض على السماء ولم اجد احدا يأول هذه الامور تأويلا مقنعا» .

جوابه : بل في القرآن الكريم إعجاز علمي ، سبق به العلم الحديث.

أما التعارضات المذكورة فكلها إنما هي تعارضات في مخيلة هذا السائل، وللعلماء قديما وحديثا عنها أجوبة مقنعة غاية الإقناع ، وكونها لم تقنع هذا (السائل) لا يعني أنها بذاتها وأدلتها غير مقنعة، فربما منع من الاقتناع هوى أو جهل أو ضعف عقل.

والنت مليء بأجوبة كافية لتلك الإشكالات، لكن العادة عند كثير من السائلين: أنه يعتقد ثم يستدل ، أو يعتقد ثم يقرأ!

وسأجيب عن هذه التعارضات المذكورة بجواب مختصر، يكفي لبيان غلطها وبعدها عن العلم والعقل:

١ - فاستنكار كون الشهب رجما للشياطين، هل هو ناشيء عن إنكار وجود الشياطين؟ أم ناشيء عن كونها رجما ، مع أن العلم يفسرها بغير ذلك؟

فإن كان ناشئا عن إنكار وجود الشياطين، فإنكارها إنما يقوم على إنكار كل ما لا تثبته أدوات اختبار المادة، والتي تعجز عن إثبات أو نفي ما لا يدخل في نطاق اختبارها. ومثل هذا الإنكار مبني على جهل؛ لأنه إنكار بغير دليل؛ إلا من دليل عدم العلم بالوجود، وعدم العلم ليس علما بالعدم.

وإن كان ناشئا عن أن للعلم تفسيرا آخر لهذه الشهب، فلو افترضنا أن العلم يجزم بهذا التفسير، ولديه الأدلة القاطعة عليه، فذلك لا ينفي أن يتفق ذلك مع كونها رجوما للشياطين أيضًا، كما فسر العلم سبب الكسوف والخسوف ، مع ذلك فهذا التفسير العلمي لا يعارض أن الله تعالى قد جعل الكسوف والخسوف علامة لتذكير الناس بيوم القيامة يوم أن تزول الشمس والقمر، فيدعوهم ذلك للخوف من لقاء الله تعالى على عصيانه وللتفكّر في اليوم الآخر .

٢- وأما مسألة ((خلق الارض وتقديرها فى أربعة أيام مقابل يومين للسماوات وسبق خلق الارض على السماء)): فأين هو التعارض ؟

فلا حقائق العلم قد حددت مدة خلق السموات والأرض، ولا اقتربت من معرفة ذلك أصلا ؛ حتى تكون المدة هي المشكلة.

ولا سَبْـقُ الأرض على السموات بالذي للعلم فيه كلام أصلا ، بل إن العلم لا يعلم شيئا عن السموات التي تُقصَد في هذا السياق ، وهي نهاية العالم المشاهد، والتي تحيط بالفضاء بكل مجراته وأجرامه من كواكب ونجوم وأفلاك. فالعلم لا يعلم شيئا عن نهاية العالم، وما زال عاجزا عن إدراك ما وراء هذه المجرات والعوالم الفضائية . فكيف يتدخّل في خلق السموات والأرض نفيا أو إثباتاً؟

سادسا : أما عن قوله : «عدم وجود دلائل تاريخية على شخصية ابراهيم والنبي وشخصيات كثر» .

فهذا القول ضرب من ضروب السفسطة والمغالطات المبنية إما على استكبار وعناد ،

أو على فساد فكري .

وإلا : فهل يشك كافر أو مؤمن بوجود شخص اسمه محمد، هو رسول دين الإسلام، الذي يتبعه مليار ونصف مليار مسلم ؟!! هل يشك عاقل بأن التاريخ البشري كله تبدل بعد ظهور هذه الشخصية العظيمة ؟!! وأي تاريخ يزعم هذا المعترِضُ الكلامَ عنه ، إذا كان يجهل التاريخ الإسلامي كله الذي قام على بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى اتباع ملته ؟!!

هذا قدر من السفسطة وإنكار الحقائق مما لا يجوز أن يُدرج ضمن الشبه التي تنطلي على الجهلة أو تحتاج جوابا.

وأما وجود إبراهيم عليه السلام فيكفي إيمان ثلاثة أرباع أهل الأرض بوجوده (من يهود ونصارى ومسلمين) ، مع شهرة ضريحه في الخليل ، بل مع تسمية بلدة باسمه ، مع بقاء كعبته منذ بناها لله تعالى في مكة المكرمة ، وعدم اندثار خبرها في جاهلية ولا إسلام ، وبقاء معالم حَجِّه إليه في الجاهلية والإسلام = لبيان أن التشكيك فيه مكابرة لا تشكك أحدا يعرف كيف تثبت الحقائق .

فكيف إذا ضممنا إلى ذلك : خبرَ الله تعالى وخبر رسوله صلى الله عليه وسلم ؟! وهما الخبران اللذان نقيم دائما الأدلة اليقينية والعقلية على كونهما وحي الله المنزل على خاتم الأنبياء ، ولولا هذه الأدلة اليقينية لما جاز لنا الاحتجاج بهما على المنكر لمصدرهما الرباني.

سابعا: أما عن قوله: «وجود بعض الامور في الكتاب مبهمة كالأحرف المقطعة وبعضها فى القصص - فقبضت قبضة من اثر الرسول فنبذتها - والقينا على كرسيه جسدا ثم اناب مم اضطر المفسرين الى اللجأ لاهل الكتاب للبيان وفتح بابا للخرافات والاسرائيليات» .

فجوابه: أن هذا الكلام مبني على غير علم .

فهل يريد منا هذا السائل أن نتجاهل فصاحة القرآن وبلاغته المعجزة، لكونه هو جهل حِكمة بعض آياته أو معنى بعضها الآخر ؟!!

هذا كمن يريد حجب الشمس بكفيه يضعها على عينه ، ثم يظن أنه بذلك قد حَجَبها عن أعين الناس كلهم.

وللجواب عن أمثلته أقول:

أما الأحرف المقطعة: فما الذي ألزم بذكرها في القرآن الكريم، لو كان القرآن الكريم مفترى؟ لماذا يذكرها النبي صلى الله عليه وسلم، مع بقية الكلام البليغ الذي بلغ قمة البلاغة الموجود في القرآن الكريم ؟!

لا شك أن السبب ليس هو العجز عن البيان ، مع كل ذلك البيان الفصيح البليغ المعجز الذي استوعب كل سور القرآن الكريم ! وما عهدنا العاجزين عن الكلام يبدؤون كلامهم بحروف مقطعة، ثم ينثرون علينا من بليغ الكلام وفصيح البيان ما يعجز عن مثله الجن والإنس مجتمعين!!

إذن لا بد أن يكون المقصود بتلك الأحرف حكمة ما، ذكر العلماء عددا منها. فإذا لم يُعجب السائل شيئًا منها، فلا يصح أن تكون تلك الأحرف سببا للشك في القرآن؛ لأنها لم تكن كلاما ككلام العاجزين عن البيان في الفهاهة والعيّ والحَصَر، وإنما كانت كالرموز التي يُقصد بها الإشارة إلى معنى خفي، وهذا ظاهر من كونها أحرفا مقطعة.

وأما بقية الآيات: فالقرآن الكريم ككلام العرب ، يكتفي بأقل ما يدل على المطلوب، والذي يفضّل الإيجاز غالبا ، ويكره الخوض في كل أمر قليل الفائدة .

فالعربي يفهم من قوله تعالى: ((قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي)): أن السامري رأى أمرا غريبا لم يره غيره، مما جعله يأخذ قبضة من أثر رسولٍ ما ، وأخذُه لهذه القبضة – بعد أن رأى ما لم يره غيره – مما يعني أن لأخذه تلك القبضة علاقةً بما رآه ، وأنه قد علم من تلك الرؤية أن تلك القبضة لها

أثرٌ لا يعرفه الناس ومما لم يبصروه من قبل . وأنه بعد أن قبضها ألقاها ، فكان ذلك هو سبب الفتنة بالعجل الذي كان السؤال عنه ابتداءً . هذا ما سوف يفهمه العربي من الآية ، وهو كاف في فهم مغزى القصة :

- فليس تحديد هذا (الرسول) الذي قُبض على أثَرِه بالأمر المهم لفهم مغزى القصة ، بعد أن عرفنا من الآية أنه رسول لا يبصره الناس ولا يعرفونه { بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ } .
- ولا من المهم معرفة طبيعة العلاقة بين القبضة والفتنة بعبادة العجل .

والمهم ينحصر في : كون السامري قد رأى ما يوجب عليه زيادة الإيمان (لأنه من الخوارق التي لا يراها الناس) ، ولكنه ازداد برؤيته هذه كفرًا ، واستغلّ ذلك في إغواء الناس.

هذا ما سوف يفهمه العربي دون حاجة للإسرائيليات ، وهو قدرٌ كاف في الإفهام ، وفي الوصول للمغزى الحقيقي للقصة .

والرجوع للإسرائيليات بعد ذلك لا عيب فيه ، ما دام يكشف تفاصيل أخرى في القصة، تُشبع نهم الإنسان في اكتشاف المجهول ، وتُشبع فضوله في معرفة التفاصيل ، وتُثري له مخيلته في تصور المشهد المذكور .

وكذلك الشأن والقول في الآية الأخرى.

ثامنا: أما قوله: «هل باقى اهل العالم معذبون وهم لا يعرفون العربية ولم يقرأوا الكتاب ناهيك من افتقارنا للدلائل القاطعة» ، فجوابه قد سبق فيما مضى، في بيان أن من لم تقم عليه الحجة الرسالية فحكمه حكم أهل الفترة.

ولكن : من قال إن من لم يعرف العربية لا تقوم عليه حجة رسالة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم؟! ليت هذا السائل سأل أكثرَ المسلمين من غير العرب (في الهند وفارس

وتركيا وشرق آسيا وأفريقيا وغيرها) ما الذي جعلهم يؤمنون ، وهم لا يعرفون العربية ؟ ليته سأل أو سمع أو شاهد المسلمين الـجُدُد من المعاصرين (ممن أسلم حديثًا ، لا عن أبوين مسلمين ، ولا عن مجتمع مسلم) ، من الأوربيين والأمريكان واليابانيين وغيرهم ، ومشاهدة ذلك متيسرة الآن في اليوتيوب، ليعلم ما هي الأدلة التي قادتهم للإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم .

وبعد أن أجبت على هذا الاستشكالات ، أود من أبنائنا أن يحصنوا أنفسهم بالمحكمات: من الدلائل اليقينية على وجود الله تعالى ، وعلى الوجوب العقلي لإرسال الرسل وبعثة الأنبياء، والأدلة اليقينية على صحة نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. فإن تحصينهم بهذه الأدلة القطعية يجعل هذه الشبه كنفخة تجاه قرص الشمس، لا تطفئه، ولا تزيده اشتعالا!!

وقد كتبت في ذلك كتابي (المحكمات)، تنبيها على ضرورة هذا الأمر في معرفة الحق وفي التثبيت عليه.

والمطالبة بتكرار ذكر تلك الأدلة القطعية هي مطالبة المعاندين ، ولكن طالب الحق يحق له أن يذكر شُبَهَهُ حولها، إذا لم يتم الجواب عليها ولم يكن قد أُزيلت شُبَهَهُ عنها . إذ إننا لنعلم أن من الناس من لا يخجل من إنكار العيان ، ولا يستحيي من جحد المشاهَد أمامه !! فوجود هذا الصنف المستكبِر من الناس يجب أن يكون حاضرًا في نفوسنا ، وأن لا نجعل من مجرد استكبارهم وعنادهم ومغالطاتهم سببا في عدم رؤية الحق أو الشك فيه .

أخيرا:

أحب أن أختم بثلاثة تنبيهات:

الأول: لولا أن مثل هذه التشكيكات تتكرر، لما أعلنتها ، ولا أعلنت الجواب عنها.

ثانيا: في العادة أبدأ بالمحكمات، ثم أثنّي بالرد على الشبهات . وهذه المرة بدأت بالرد على الشبهات ؛ لأننا ابتُلينا بأناس لا يقرؤون ، ويريدون أن يتعلموا بغير تعلُّم ولا صبر على

القراءة ، فخشيت البدء بالتذكير بالمحكمات، فيظنون أني سأكرر المطالبة بالتسليم، دون جواب على الشُّبَه ! فأحببت أن أؤخر التنبيه على فقه باب المحكمات في الآخر، لكي أيسر عليهم معرفة الحق، والله يعيننا على قوم أجهدونا في بيان الحق لهم ، وفي الترفُّقِ بهم والصبر على إنقاذهم من هلكتهم.

ثالثا : على المسلم أن يُقوِّي نفسَه في العلم بالدلائل اليقينية على أصول الإيمان المشار إليها آنفا ، وإلا أصبح نَهْبًا للجهل والشك.

لماذا يُذكر سواد الوجه للدلالة على الذم ؟

(روايات السنة والعنصرية ضد السُّود)

التطاول على السنة النبوية الشريفة أصبح تقليعةً جديدةً ، وباسم الدفاع عن الدين !! وباسم تعظيم القرآن الكريم !! ونسي أصحاب هذه التقليعة أن الدين الذي يزعمون الدفاع عنه هو الذي يأمرهم بالائتمار للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأن القرآن الكريم نفسه الذي يدّعون الائتمارَ به هو الذي يأمرهم : بطاعة النبي صلى الله عليه وسلم في آيات كثيرة جدا ، وبالاقتداء به صلى الله عليه وسلم ، وبفهم القرآن من خلال سنته وسيرته عليه الصلاة والسلام .

نسوا كل ذلك من أوامر الدين ومن آيات القرآن الكريم ، وباسم الدين وباسم القرآن الكريم !!

ولذلك كان كلامهم تقليعةً ونزقًا ، وكان عبثا فكريا باسم التفكّر أيضا !!

ومرة قال لي قائل : اعذرني فيما سأقول ! ففيما تصححونه (معشرَ علماء الدين) من السنة النبوية مشكلات لا أجد منها في القرآن الكريم شيئا ، مما يجعلني لا أثق في تصحيحكم وعلمكم الذي تميزون به صحيح السنة من سقيمها !

قلت له : مثل ماذا ؟

فقال : مثل بعض النصوص العنصرية فيما تصححونه من الأحاديث ، كالحديث الوارد في عذاب القبر : ((وان العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ...)) ، أوليس في هذا تأكيد على العنصرية ضد أصحاب البشرة السوداء ؟!

فقلت له : أولا : هل نسيت أن هذا الحديث يجب أن يُفهم مع بقية النصوص

والأحاديث التي تحارب العنصرية بكل قوة ووضوح ، كقوله صلى الله عليه وسلم : ((يا أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . ألا لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر ؛ إلا بالتقوى)) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : ((إن الله عز و جل قد أذهب عنكم عُبيّة الجاهلية ، وفخرها بالآباء : مؤمن تقي ، وفاجر شقي . الناس بنو آدم ، وآدم من تراب)) . ومعنى (عبية) : أي نخوتها وتكبرها وافتخارها الباطل . ولما عيّر أبو ذر رضي الله عنه بلالا بسواد لونه قائلا له : ((يا ابن السوداء)) ، اشتد غضب النبي صلى الله عليه وسلم عليه ، حتى قال له : ((إنك امرؤٌ فيك جاهلية)) . وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، وهو أمير المؤمنين ، وهو القرشي : في ذروة العرب ، وفي ذروة الحكم والإمامة ، يقول : ((أبو بكر سيدُنا ، وأعتق سيدَنا)) ، يقصد بلالا الحبشي الذي كان عبدا مملوكا رضي الله عنه .

هذا كله مما رواه الرواة ، وصححه منهج المحدثين .

ثانيا : الفهم الصحيح للنص ليس بالأمر الهين ، ويحتاج علما واسعا بأساليب العرب في التعبير : في حقيقتها ومجازها ، وفي استعاراتها وكناياتها ، وفي أعرافها اللغوية وأمثالها .

ولو حاولنا أن نتفهم ذلك ، لوجدنا أن العرب يعبرون بالسواد عن كل ما تنقبض منه النفس ، أخذا من الظلام الذي تنقبض فيه النفس ، موازنة بالنور والضياء . فهو مأخوذ من سواد الظلام ووحشته ، لا من سواد لون البَشَرَةِ . وهذا الشعور شعور بشري يستوي فيه الناس كلهم ، حتى أصحاب البشرة السوداء أنفسهم . فمن لا يستوحش بالظلام ، ويأنس بالضياء ؟!

يقول المتوكل الليثي (وهو شاعر أموي) :

أرمــي بهــم وبــنفسي مَهْــمَهًا زَلِــقًا

وعُــرْضَ مُطّــرِدٍ أكنافُــه سُــودُ

فيصف ظلمة الطريق بالسواد .

ولذلك تصف العرب مجتمع النخيل والأشجار بالسواد ، ومنه سُمي سواد العراق ، لكثرة النخيل فيه . فهو وصفٌ مأخوذ من الظُّلمة التي يستوحش منها الناس كلهم ، وليس من لون الآدميين .

وبذلك صار العرب يقولون لمن أساء : سَوّد الله وجهك ! ولا يقصدون بذلك السواد الحقيقي ، وإنما يقصدون ظلمة العار والفضيحة ، وهي ظلمة معنوية ، ولو كان وجهه أبيضَ شديد البياض !

فالمقصود بالحديث : أن الملائكة تأتيه بمنظر يستوحش منه ، سود الوجوه ، لارتباط السواد بالوحشة بسبب الظلام ، لا بسبب البَشَرَةِ السوداء في بني آدم .

ولذلك فقد جاء نحو هذا التعبير في القرآن الكريم أيضًا ، لا كما يدعي هذا الذي أجيب عليه !

ثالثا : ليس صحيحا أن السنة انفردت بهذا التعبير ، كما يُزعم . بل هو تعبير قرآني ، كما في قوله تعالى { يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ } .

فها هو القرآن الكريم يعبر عن ظلمة وجوه الكفار الموحشة بالسواد ، حتى لو كانوا بيضا مُهقًا . مما يدل على أن ما ظُن بأن السنة المروية قد انفردت به ، لم يكن ظنًّا في محله . وما دام أن ما ظُن به السوء في مرويات السنة قد جاء مثله في كتاب الله ، فقد دلَّ هذا الاتفاقُ على أن ذلك الظن ظنٌّ في غير محله ، وأنه نشأ عن عَجلةٍ غير مقبولة وعن جُرأةٍ مذمومة .

ومما يوضح أن ارتباط السواد بظلمة الليل ووحشته ، لا ببَشَرةِ البشر ولونها ، قوله تعالى عن أهل الفجور والكفر { كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } ، فوصف الله تعالى في هذه الآية وجوه الكفار بأنها كأنها أُغشيت من ظُلمة الليل ظُلمةً بعد ظلمة ، والكفار هم أنفسهم الذين وصف الله تعالى

وجوههم بالسواد ، في الآية الأخرى ، مما يدل على أن المقصود بهذا الوصف : ما ارتبط به السوادُ في النفوس السوية بسواد الليل الموحش ، لا بسواد بشرة الآدميين .

وبذلك يتبين أن السنة بريئة من تلك التهمة ، في مثالٍ جديدٍ من أمثلة الجرأة على السنة وعلومها ، مع بُعد تام عن معرفة دقةِ علومها ، وصعوبة الخوض في نقدها !

لماذا هذا الموقف الشديد من الكلاب في الإسلام ؟

المقال الأول :

ذكر الإمام أبو عمر ابن عبد البر الأندلسي (ت٤٦٣هـ) الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : ((من اقتنى كلبا ؛ إلا كلبا ضاريا أو كلب ماشية = نقص من عمله كل يوم قيراطان)) .

ثم قال ابن عبد البر في التمهيد : ((وفي معنى هذا الحديث : تَدْخُلُ عندي إباحةُ اقتناء الكلاب للمنافع كلها ، ودفع المضار ، إذا احتاج الإنسان إلى ذلك ؛ إلا أنه مكروه اقتناؤها في غير الوجوه المذكورة في هذه الآثار ؛ لنقصان أجر مقتنيها والله أعلم .

وإنما كره من ذلك اقتناؤها لغير منفعة وحاجةٍ وَكيدةٍ ، فيكون حينئذ فيه ترويعٌ الناس ، وامتناعُ دخولِ الملائكة في البيت والموضع الذي فيه الكلب . فمن ههنا (والله أعلم) كُره اتخاذها .

وأما اتخاذها للمنافع : فما أظن شيئا من ذلك مكروها ؛ لأن الناس يستعملون اتخاذها للمنافع ودفع المضرة قرنا بعد قرن ، في كل مصر وبادية ، فيما بلغنا ؛ والله أعلم . وبالأمصار علماء ينكرون المنكر ويأمرون بالمعروف ويسمع السلطانُ منهم ، فما بلغنا عنهم تغيير ذلك ؛ إلا عند أذى يحدث من عقر الكلب ونحوه .

وإن كنت ما أحب لأحد أن يتخذ كلبا ولا يقتنيه إلا لصيد أو ماشية في بادية أو ما يجري مجرى البادية من المواضع المخوف فيها الطرق والسرق ، فيجوز حينئذ اتخاذ الكلاب فيها للزرع وغيره ؛ لما يُخشى من عادية الوحش وغيره ؛ والله أعلم . وقد سئل هشام بن عروة عن الكلب يُتخذ للدار ؟ فقال : لا بأس به ، إذا كانت الدار مخوفة)) .

ولما ذكر ابن عبد البر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة)) ، قال : «فلهذا (والله أعلم) وما أشبهه كَرِهَ اتخاذَ الكلاب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

وقد اختُلف في هذا الحديث :

فقيل هو خصوص لجبريل وحده صلى الله عليه وسلم ، بدليل الحفظة .

وقيل بل الملائكة على عموم الحديث . والله أعلم .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث (نقص من عمله أو من أجره) يريد من أجر عمله كل يوم قيراطان : دليل على أن اتخاذها ليس بمحرم ؛ لأن ما كان محرما اتخاذه لم يجز اتخاذه ولا اقتناؤه على حال نقص من الأجر أو لم ينقص . وليس هذا سبيل النهي عن المحرمات : أن يقال فيها : من فعل كذا ...

ولكن هذا اللفظ يدل – والله أعلم – على كراهية ، لا على تحريم .

ووجه قوله عليه السلام في هذا الحديث من نقصان الأجر : محمول عندي – والله أعلم – على أن المعاني المتعبد بها في الكلاب : من غسل الإناء سبعا إذا ولغت فيه ، لا يكاد يقام بها ، ولا يكاد يتحفظ منها ؛ لأن متخذها لا يسلم من ولوغها في إنائه ، ولا يكاد يؤدي حق الله في عبادة الغسلات من ذلك الولوغ ، فيدخل عليه الإثم والعصيان ، فيكون ذلك نقصا في أجره بدخول السيئات عليه .

وقد يكون ذلك من أجل أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ، ونحو ذلك .

وقد يكون ذلك بذهاب أجره في إحسانه إلى الكلاب ؛ لأن معلوما أن في الإحسان إلى كل ذي كبد رطبة أجرا لكن [عدم] الإحسان إلى الكلب ينقص الأجر فيه ، أو يبلغه ما يلحق مقتنيه ومتخذه من السيئات بترك أدبه لتلك العبادات في التحفظ من ولوغه والتهاون بالغسلات منه ، ونحو ذلك : مثل ترويع المسلم وشبهه ؛ والله أعلم)) .

ولخص هذا الكلام في الاستذكار فقال : ((وأما نقصان الأجر فإن ذلك – والله أعلم –

لما يقع من التفريط في غسل الإناء من ولوغ الكلاب لمن له اتخاذها ومن التقصير عن القيام لما يجب عليه في ذلك من عدد الغسلات وقد يكون لما جاء في الحديث بأن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب [وقد مضى القول في ذلك] .

وقد يكون في التقصير في الإحسان إلى الكلب ؛ لأنه قانعٌ ناظرٌ إلى يد متخذه . ففي الإحسان إليه أجر ، كما قال صلى الله عليه وسلم في كل ذي كبد رطبة أجر وفي الإساءة إليه بتضييقة وزر)) .

وقد اعترض أحد العلماء على كلام ابن عبد البر عن أن نقصان الأجر لا يدل على التحريم ، فقال الحافظ العراقي في كتابه (طرح التثريب) عن كلام ابن عبد البر : « وهو عجيب ؛ لأن استدلالنا على التحريم بالنقصان من الأجر ؛ لأن ذلك يدل على ارتكاب محرم أحبط ثواب بعض الأعمال . كما كان عدم قبول صلاة شاربِ الخمر ، والعبدِ الآبق ، وآتي العَرّاف والكاهن = يدل على تحريم هذه الأعمال ؛ فإن تحريمها هو الذي أحبط ثوابها . بخلاف عدم قبول صلاة المحدث ، فإنه ليس لاقتران معصية ؛ لأن الحدث ليس بمعصية ، وإنما هو لفقد شرط وهو الطهارة » .

ويُجاب على هذا الاعتراض : بأن نقصان الأجر شيءٌ غيرُ إحباطِ الأجر وإحباط العمل ؛ ولذلك يصح أن يُقال عمن فعل مكروها : إنه قد نقصَ أجرُه ، لأن المكروه هو ما يُثاب تاركه ولا يُعاقب فاعله . ويصح أن يُقال عمن ترك سُنةً مستحبةً غير واجبة أيضًا : إنه قد نقص أجرُه ، مع أنه لم يفعل حراما . فنقصان الأجر بهذا المعنى لا يكفي وحده للدلالة على التحريم ، ولا عجب في تقرير ابن عبد البر !

ويبين انعدام العجب عن كلام ابن عبد البر : حديث أبي هُرَيرَةَ (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من شهِدَ الجَنَازَةَ ، حتى يُصلَّى عليها : فلَهُ قِيراطٌ . ومَنْ شهِدَهَا ، حتى تُدفَنَ : فلَهُ قِيراطَانِ . قيلَ وما القِيرَاطَانِ ؟ قال : مِثلُ الجَبَلَيْنِ العَظِيمَيْنِ » . فلما بلغ عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) هذا الحديث ، وكان يصلى على الجنازة ثمَّ

يَنصَرِفُ ، ولا يتبعها حتى نُدفن ، قال : لقد ضَيَّعنَا قَرَارِيطَ كثِيرَةً .

فمن لم يُصلِّ مع المصلِّين (وقد ترك سنة) نقص من أجره قيراط ، ومن ضمّ إلى ذلك أنه لم يتبع الجنازة مع المشيّعين (وقد ترك سنة) فقد نقص من أجره قيراطان[2] ، كما قيل في متّخذ الكلب ، مع كونه لم يفعل حراما .

وفي هذا النقل من الفوائد :

١- هذه النصوص النبوية هي نفسها أدلة المحرمين ، وهي نفسها (كما ترى) دليل الكراهة بغير تحريم ! ولكن بتعمق في الفهم ، ونظرٍ في طريقة النصوص في التعبير عن التحريم .

٢- جعلَ ابن عبد البر الكراهةَ حكما خاصًّا بمن أدت تربيته الكلاب إلى أمر محرم ، فيكون وقوعه في الحرام هو الحرام . وأما ذريعة الوقوع في الحرام (وهي تربية الكلاب) فتبقى عنده مكروهة ؛ لأسباب توجب مراجعة باب (سدّ الذرائع) على أصحاب الغلو في سدها !!

٣- تربية الكلاب لو كانت لغير منفعة ، ولغير كلب ماشية (وما ورد في النص) : مكروهة . وأما إذا كانت لمنفعة فمباحة ، بشرط القيام بحق الله تعالى تجاه تربيتها .

٤- قاس ابن عبد البر على المنافع الواردة في النص بقية المنافع ؛ فلم يحصر عدم المكروه في الوارد فقط ؛ لأن هذه النصوص معلّلة بمصالح ومفاسد .

٥- جعل من أسباب نقصان الأجر بتربية الكلاب : التقصير في الإحسان إلى الكلب ؛ لأنه قانع ناظر إلى يد متخذه !! أي : إن الكلب وفيّ لصاحبه حافظ له ولطعامه ، لا

---

(٢) قلت «مع المصلين» و«مع المشيعين» ؛ لأبين أن نقصان القراريط حاصل لكل تاركٍ صلاةَ الجنازة وتشييع الميت إلى مدفنه ، حتى مع وجود من يقوم بفرض الكفاية في الصلاة والتشييع . فنقصان الأجر أُطلق على من ترك مستحبا ، لا على من ترك واجبا .

يأكل من طعامه إلا ما وهبه إياه ، وينتظر هبته من صاحبه ، وليس كالقط الذي يخطف الطعام !!

وفي هذه النظرة للكلب ما يدل على شرف طباعه ، وأن الشرع كره تربيته لمن لا يحسن إليه !!

وازنوا هذا بما يشيع بين بعض الفقهاء من بغض للكلاب ، تجدون فَرْقَ ما بين فقه أهل الفقه الـمُحِبّ والفقه المبغِض ، وفَرْقَ ما بين الفقه الذي يفهم بالقلب والفقه الذي يفهم بالعقل فقط !!

المقال الثاني :

لماذا لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب

(والاستدلال بعدم دخول الملائكة على التحريم)

من أدلة التحريم التي ما زلت أستغرب من ذكرها في أدلة التحريم ؛ لأنه لا دليل فيها على قصد التحريم : عدم دخول الملائكة أو اجتنابها لأمر ما (كعدم دخولها بيتا فيه صورة أو كلب أو جُنب أو عدم مرافقتها إبلا تعلق الأجراس).

وسبب كونها ليست دليلا على التحريم أمور :

الأول : أنه لم يأت دليل في الشرع يدل على أن ما تكرهه الملائكة أو تجتنبه يلزم أن يكون حراما على بني آدم .

ثانيا : ولا نحن مأمورون بالاقتداء بالملائكة في كل شأنهم ، ولا يمكن ذلك ؛ فهم خلق آخر ، ولهم أحكامهم الخاصة .

ولذلك كان من بين الأحكام التي ذكرها بعض الفقهاء : أن عدم دخول الملائكة لبيت فيه صورة لا يحرم علينا دخولها .

قال ابن قدامة في المغني عن دخول البيت الذي فيه صور : ((وكون الملائكة لا تدخله لا يوجب تحريم دخوله علينا ، كما لو كان فيه كلب ، ولا يحرم علينا صحبة رفقة فيها جرس ، مع أن الملائكة لا تصحبهم)) .

ثالثا : ولا يقتضي العقل ذلك ، فالملائكة خلق مكرمون ، لكنهم خلق ، وقد يكرهون ما لا يحرم علينا . ومما يقطع بذلك : حديث الصحيحين : ((نهى رسول اللهِّ صلى الله عليه وسلم عن أَكْلِ الْبَصَلِ والْكُرَّاثِ ، فغَلَبَتْنَا الحْاجَةُ ، فأَكَلْنَا منها ، فقال : من أَكَلَ من هذه الشّجَرَةِ المُنْتِنةِ فلا يقْرَبَنَّ مسْجِدَنَا ؛ فإن المْلَائِكَةَ تأَذَّى ممِّا يتَأَذَّى منه الْإنْسُ)) . ولم يقل

أحد إن أكل البصل والكراث حرام ، مع كراهية الملائكة له وتأذيها منه .

رابعا : أجمع العلماء على عدم تحريم أشياء وهي مما يكرهها الملائكة ، كما سبق في الثوم والبصل والكراث .

خامسا : أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه جُنب (على ما صح) ، والمسلم يجنب ، ولا يجب عليه الاغتسال فور إجنابه . ولو كان عدم دخول الملائكة يقتضي التحريم ، لوجب الاغتسال فور الإجناب .

بل المعتكف يبيت في المسجد ، ولا بد أن يجُنب بعض المعتكفين ، والمسجد أولى بتطهيره ، ومع ذلك شُرع الاعتكاف ، ونأمر المعتكف بأن يغتسل فور إجنابه ، ولم تمنع الشريعة النوم في المسجد .

سادسا : عدم دخول الملائكة أصلا مقيد ببعض الملائكة ، ولا يعم جميع الملائكة :

- إذ الحفظة الكاتبون ممن لا يفارقون بني آدم ؛ لأنهم ينسخون أعمالهم { إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون } .
- والملائكة الذين يحفظون بني آدم ، حتى يحين أجلهم ، وهم المذكورون في قوله تعالى { لهُ مُعقِّبَاتٌ مّن بَينِ يَدَيهِ ومِنْ خَلفِهِ يحَفَظُونَهُ منْ أَمرِ اللهّ } .
- وملائكة قبض الروح (سواء أكانت روح مؤمن تقي أو فاجر شقي أو كافر غوي) لا يمنعها شيء من الدخول ، ومن قبض روح من حان أجله .

وهذا حنظلة شهيد أُحد (رضي الله عنه) ، قُتل وهو جنب ، فلم تتجنبه كل الملائكة ، بل غسلته طائفة منهم .

ولذلك ذهب بعض أهل العلم إلى أن عدم دخول الملائكة بيتا فيه صورة أو كلب خاص بملائكة الوحي ، حتى إن ابن حبان شرحَ حديث «إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الصُّوَرُ لا تَدْخُلُهُ الْمَلائِكَةُ» بقوله : « يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْبَيْتُ الَّذِي يُوحَى فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ إِذْ محُاَلٌ أَنْ يَكُونَ رَجُلٌ فِي بَيْتٍ وَفِيهِ صُورَةٌ من غير أَنْ يَكُونَ حَافِظَاهُ مَعَهُ ، وَهمُا مِنَ

الْمَلائِكَةِ .

وَكَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ ((لا تَصْحَبِ الْمَلائِكَةُ رُفْقَةً فِيهَا كَلْبٌ أَوْ جَرَسٌ)) يُرِيدُ بِهِ رُفْقَةً فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ؛ إِذْ مُحَالٌ أَنْ يَخْرُجَ الْحَاجُّ وَالْعُمَّارُ مِنْ أَقَاصِي الْمُدُنِ وَالأَقْطَارِ ، يَؤُمُّونَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ عَلَى نَعَمٍ وَعِيسٍ بِأَجْرَاسٍ وَكِلابٍ ، ثُمَّ لا تَصْحَبُهَا الْمَلائِكَةُ ، وَهُمْ وَفْدُ الله» ، انتهى كلام ابن حبان .

سابعا : ذهب بعض أهل العلم إلى أن الملائكة التي تمتنع من دخول البيت الذي فيه صورة أو كلب أو جنب : لا تمتنع من كل بيت فيه ذلك ، وإنما من بيت الوحي فقط ، وهو بيته صلى الله عليه وسلم خاصة ، دون بيوت بقية المؤمنين والناس.

قال ابن حبان : «ذكر الخبر الدال على أن قوله صلى الله عليه وسلم لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا كلب أراد به بيتا يوحى فيه لا كل البيوت» ، ثم ذكر حديث مَيْمُونَة رضي الله عنها : « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَصْبَحَ يَوْمًا وَاجِمًا ، قَالَتْ مَيْمُونَةُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، اسْتَنْكَرْتُ هَيْئَتَكَ مُنْذُ الْيَوْمِ ! قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ وَعَدَنِي أَنْ يَلْقَانِيَ اللَّيْلَةَ ، فَلَمْ يَلْقَنِي ، أَمَا وَاللَّهِ مَا أَخْلَفَنِي ! قالت : فَظَلَّ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمَهُ ذَلِكَ عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ جِرْوُ كَلْبٍ تَحْتَ فُسْطَاطٍ لَهُ ، فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ مَاءً فَنَضَحَ مَكَانَهُ ، فَلَمَّا أَمْسَى ، لَقِيَهُ جِبْرِيلُ ، فَقَالَ : قَدْ كُنْتَ وَعَدْتَنِي أَنْ تَلْقَانِيَ الْبَارِحَةَ ؟! قَالَ : أَجَلْ ، وَلَكِنَّا لا نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلا صُورَةٌ ».

ولذلك اطّرد ابن حبان في الإبل التي تعلق الأجراس ، فقَالَ :« يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِهَذَا الْعِيرَ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، مِنْ أَجْلِ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ» .

وحتى لو حُملت على العموم فهي للاستحباب عنده ، كما قال : «ذِكْرُ الإخبار عن نفي جواز صحبة المرء ذوات الأجراس استحبابا » . .

ولا يمنع من سواغ هذا الاجتهاد من الإمام ابن حبان ، ومن كونه اجتهادًا معتبرًا : قولُ الحافظ ابن حجر عنه : «وهو تأويل بعيد جدا ! لم أره لغيره .

ويزيل شبهته : أن كونهم وفدَ الله لا يمنع أن يُؤاخذوا بما يرتكبونه من خطيئة ، فيجوز أن يُحرموا بركة الملائكة بعد مخالطتهم لهم ، إذا ارتكبوا النهي ، واستصحبوا الجرس ، وكذا القول فيمن يقتني الصورة والكلب » .

والجواب : ليس في المسألة إجماع ، حتى يُحجَر على ابن حبان (في إمامته واجتهاده) أن يجتهد . بل الخلاف قد حكاه ابن عبد البر أيضًا ، ولم ينفرد به ابن حبان . فقد حكى ابن عبد البر الاختلاف في الملائكة التي تمتنع من دخول البيت الذي فيه صورة أو كلب ، وذكر أن من العلماء من خصه بجبريل عليه السلام .

ثم ماذا سيقول الحافظ ابن حجر في أدلة تقييد الملائكة التي تمتنع من دخول البيت الذي فيه صورة أو كلب ، والتي سبق بعضها ، والتي تبين أنه ليس كل الملائكة ممنوعة من دخول البيت الذي فيه صورة أو كلب .

وهذا التقييد الواجب : هو الذي جعل ابن حبان يسعى للتقييد ؛ لحلِّ التعارض ودفع هذا الإشكال .

وماذا سيقول الحافظ عن حاج أكل ثوما أو بصلا ؟ هل تتجنبه الملائكة ؛ لأنها تتأذى منه ، مع أنه لم يأت حراما .

وماذا سيقول الحافظ في حاجٍّ أجنب ، وفي معتكف أجنب ، هل ستتجنب الملائكة منزلا هو فيه ؟ ولقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يجنب ، فربما اغتسل في أول الليل ، وربما أخر الغسل إلى آخره . فهل ستجتنب الملائكة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يغتسل ؟! وهل سيفوته فضلُ حياطتها وحفظها بذلك ؟!!

وماذا سيقول الحافظ عن قافلة حاج اتخذت كلب حراسة للحاجة إليه ، وما أحوج القوافل لمثله ، فهل ستتجنبهم الملائكة ؟ خاصة مع القول بأن الملائكة تجتنب البيت الذي فيه كلب أو صورة ، حتى مما رُخصَ فيه ، كما ذهب إلى ذلك الإمام النووي ، فقال : «الأظهر أنه عام في كل كلب وكل صورة ، وأنهم يمتنعون من الجميع ؛ لإطلاق الأحاديث ،

ولأن الجرو الذي كان في بيت النبي- عليه السلام- تحت السرير كان له فيه عذر ظاهر؛ فإنه لم يعلم به ، ومع هذا امتنع جبريل- عليه السلام- من دخول البيت ، وعلل بالجرو ، ولو كان العذر في وجود الصورة والكلب لا يمنعهم لم يمتنع جبريل- عليه السلام-» .

فإن قيل : بل الأظهر أن الملائكة لا تجتنب إلا بيتا فيه ما لم يُرخص به من الصور والكلاب ، كما هو قول بعض أهل العلم ؟ قيل : فهو مبني على القول بتحريم ما تجتنبه الملائكة للنهي عنه ، وهو محل النزاع عند من رآه نهيا للتنزيه ، لا للتحريم . خاصة في الكلب ، وبعض الصور والتماثيل .

ويؤيد التخصيص : أن جعل الصورة في وسادة هو مما ورد الإذن به في الحديث الصحيح ، ومع ذلك ففي الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : حَشَوتُ للنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وسَادَةً فيها تمَاثيلُ ، كأَنهَّا نُمْرُقةٌ . فجَاءَ ، فقَامَ بين الْبابَيْنِ ، وجَعَلَ يتَغيَّرُ وجْهُهُ . فقلت : ما لنا يا رسُولَ اللهّ ؟! قال : ما بالُ هذه الْوسَادَةِ ؟! قالت : وسَادَةٌ جعَلْتُهَا لك لتَضْطَجِعَ عليها ، قال : أمَا عَلمْتِ أنَّ المَلَائكَةَ لا تدْخُلُ بيْتًا فيه صُورةٌ ، وأَنَّ من صنَعَ الصُّورةَ يُعذَّبُ يوم الْقيَامَةِ يقول أحْيُوا ما خلَقْتُمْ)) .

فمع كون الصورة مما يؤذن به ؛ إلا أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أنها تمنع دخول الملائكة بيته الطاهر !

ثامنا : ورد ما يدل على أن يسير الصور أو بعضها لا يمنع من دخول الملائكة !

فعَنْ بُسْرِ بْنِ سَعِيدٍ ، عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ ، عَنْ أَبِي طَلْحَةَ صَاحِبِ رَسُولِ اللهَّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللهَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « إِنَّ المَلائِكَةَ لا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ)) . قَالَ بُسْرٌ : ثُمَّ اشْتَكَى ، فَعُدْنَاهُ ، فَإِذَا عَلَى بَابِهِ سِتْرٌ ، وَإِذَا فِيهِ صُورَةٌ . فَقُلْتُ لِعُبَيْدِ اللهَّ الخَوْلانيِّ : أَلَمْ يخُبِرْنَا ؟ وَيَدَعُ الثَّوْبَ ؟!! قَالَ عُبَيْدُ اللهِّ : أَلَمْ تَسْمَعْهُ قَالَ : إِلا رَقْمًا فِي ثَوْبٍ ؟» .

ولذلك قدمه ابن حبان بقوله : «ذكر البيان بأن الملائكة قد تدخل البيت الذي فيه اليسير

من الصور» .

وبعد هذا كله ، يأتيني شخص يظن اجتهاده وحي ، فيقطع بتحريم اقتناء الكلاب لغير ما نُصّ بالترخيص فيه(٣) ، ويستدل له بما لا ينفع للاستدلال من كون الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب !!

تسمع فتاوى هؤلاء القوم : في اغترار إطلاقاتها وقطعها ، وكأنهم يقرؤون من اللوح المحفوظ !! وهم عن هذا الاختلاف الوجيه الذي يستدل بالنصوص الصحيحة بمعزلٍ تام ؛ إما جهلا بمثل هذا الاختلاف أصلا (ولذلك لا تكاد تجد عندهم إشارة إليه) ، أو ضعفَ فَهْمٍ يمنعهم من إدراك مآخذ الأقوال ومن تقديرها قدرها في الاعتبار والقوة والوجاهة !!

رحم الله الفقه إذا وصل عند هؤلاء !!

ولقد ربوا جيلا من طلبة العلم على هذا الغرور والإعجاب بجهلهم ، سيكونون مفتيي المستقبل !!

فرحم الله أمة تنتظر هؤلاء المفتين !!

---

(٣) وتنبهوا أني أقول : «يقطع بتحريم» ، ولا أتحدث عن تحريم ظني ، لا يُنكر على من خالفه .

المقال الثالث

لماذا أُمر بقتل الكلاب في فترة من فترات البعثة المحمدية

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((لَوْلَا أَنَّ الْكِلَابَ أُمَّةٌ مِنْ الْأُمَمِ لَأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا)).

فيه فوائد :

الأول : هذا الحديث قاله النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن كان قد أمر بقتل الكلاب ، ثم نهى عن ذلك .

كما في حديث عبد الله بن مغفل (في صحيح مسلم) : ((أمر رسول الله بقتل الكلاب ، ثم قال : ما بالهم وبال الكلاب ؟! ثم رخص في كلب الصيد وكلب الغنم)) .

ولذلك عد بعض أهل العلم أن الأمر العام بقتل الكلاب منسوخ بالنهي عن قتلها ؛ لأنها أمة من الأمم .

والأرجح عندي : أن هذا ليس نسخا ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أمر بقتل كلاب المدينة لمصلحة مؤقتة ، ولم يأمر بقتلها أمرا عاما مؤبدا . بدليل استغرابه صلى الله عليه وسلم من استفحال قتلها ، عندما قال : ((ما بالهم وبال الكلاب ؟!)) .

وهذا الترجيح خلاف ما ذهب إليه القاضي عياض والإمام النووي ، من أن النهي كان عاما ؛ أخذا بظواهر الأحاديث ؛ إذ إنهما لم يفسرا ذلك العموم بملاحظة قوله صلى الله عليه وسلم : «ما بالهم وبال الكلاب ؟!» ؛ إذ كيف يستنكر النبي صلى الله عليه وسلم قتلهم الكلاب ، لو كان قد سبق منه أمرٌ عام مطلق بقتلها .

ثم مما يُبعد القول بالنسخ : إن كون الكلاب أمة من الأمم ليس حكما طارئا ولا خبرا خافيا ولا واقعا مستترا ، فليس هو مما يخفى ثم يظهر ، ليأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالقتل ، ثم ينهى عنه ؛ بسبب أنها أمة من الأمم ؛ فالكلاب أمة من الأمم قبل الأمر وبعد النهي ، ولا يخفى ذلك على أحد . فتعليل عدم الأمر بقتلها بكونها أمة من الأمم كأنه تصحيح

لفهم خطأٍ ، كان قد فهمه بعض الصحابة من أمره المؤقت والمقيد بقتلها ، فبين صلى الله عليه وسلم لهم أنه لا يمكن أن يأمر بقتلها أمرا عاما مطلقا وهي أمة من الأمم .

ثم العرب من أعرف الأمم بفائدة الكلاب في الحراسة والرعي والصيد ، وامتن الله على الناس بالكلاب المدربة ، وأباح صيدها { يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الجْوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ } .

اللهم إلا أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أمر باجتهاده أن تُقتل كلها ، ثم جاء الوحي مصوبا له أمره ، بالنهي عن قتلها ؛ لأنها أمة من الأمم ؛ إلا الكلب العقور (المسعور) . وقد يشير إلى ذلك بعض الروايات في سبب ورود الأمر بالقتل ، وأنه بسبب امتناع جبريل عليه السلام من دخول بيته صلى الله عليه وسلم بسبب جرو كلب كان فيه .

لكن هذا التوجيه لا يجيب أيضًا على قوله صلى الله عليه وسلم : « ما بالهم وبال الكلاب ؟! » ؛ لأنه لو أمرهم بقتلها أمرا عاما لما استنكر منهم السعي في الائتمار بأمره والمبادرة إلى طاعته أيضًا ، وإنما سيبلغهم بتصويب اجتهاده وبرجوعه عن أمره الأول .

الثاني : ظاهر هذا الحديث يدل أن النبي صلى الله عليه وسلم يجتهد ، وهو قول جماهير أهل العلم ؛ لكنه لا يُقر إلا على صواب ، وإلا صوّب الوحي له اجتهاده .

فمعنى الحديث : كنت سآمر بقتل الكلاب ؛ لولا علمي بأن الله تعالى أراد لها البقاء بخلقها أمة من الأمم ، فلم أكن لآمر بأمر يخالف مشيئة الله القدرية .

ووجه الدالة في الحديث على اجتهاده صلى الله عليه وسلم : أنه لا يمكن أن يكون قد أوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب ، ولولا أنها أمة من الأمم لائتمر عليه الصلاة والسلام بأمر الله تعالى ! فهذا باطل يُنزه عنه عامة المؤمنين ، فكيف بسيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم .

ولا يمكن أن يكون قد قيل له : لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرناك بقتلها ؛ لأنه لو جاء الوحي بذلك ، لقال صلى الله عليه وسلم : (لولا أن الله تعالى قد خلق الكلاب وأرادها أمة من الأمم ، لأمركم الله تعالى بقتلها) ، أو لقال : (أوحي إلي : أنه لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأُمرتم بقتلها) . وآخر احتمال هو أن يقول صلى الله عليه وسلم : (لأمرت) ، مما يوهم أنه هو الآمر من قبله اجتهادا .